الشتاء الأسود

رواية

أحمد صلاح المهدي

ساحر الكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

رواية

الشتاء الأسود

تأليف

أحمد صلاح المهدي

مقدمة

بقلم/ د. حسام الزمبيلي

رئيس الجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي.

الشتاء الأسود، الشتاء الأبيض، لم نعتد شتاءً أبيض في مصر، فما بالك بالشتاء الأسود! الشتاء الأبيض يحمل من الرومانسية بقدر ما يحمل من الكآبة. إن كنت ممن يظنون بكآبة الشتاء الأبيض؛ فانتظر حتى تقرأ الشتاء الأسود لأحمد صلاح المهدي. بأنامل محترفة ينسج لنا أحمد المهدي أحداث روايته، وبنفس هذه الأصابع يسحبنا بسلاسة عبر أحداث الرواية.

ينجح أحمد المهدي في رسم صورة حقيقية بدرجة مبهرة لأحداث الشتاء الأسود في مصر، تركت لدينا ظاهرة ما بعد الرؤية After Image بصورة ممتدة فواحة، فعندما تتم أحداث الرواية تصل لحالة من الانسجام العقلي تجعل أحداثها ماثلة أمامك، حتى بعد أن تغادر صفحات الراوية وتذهب لشئون أخرى؛ أحداثها تظل تطارد مخيلتك، لتشعر بمزيج من القلق والمتعة.

أحمد المهدي يحفر لنفسه مكانًا بارزًا بين كتّاب الموجة الرابعة لكتّاب الخيال العلمي العرب؛ وهذه الرواية علّها تكون (موناليزا أحمد المهدي) أو بمثابة رواية (حلول الليل) لعظيموف.

مقدمة

بقلم/ الناقد الأدبي أ. خالد جودة.

يجيد الروائي "أحمد صلاح المهدى" حبكته الروائية المشوقة، ويحكم حول فؤاد القارئ حبال السرد المنسوجة من خيال خصب يصف لنا مغامرة ما بعد كارثة الحرب الكونية، التي غمرت العالم بالظلمة والقتامة والتلوث الإشعاعي والرعب، وتبدو واقعية فنية تمثل "زرقاء يمامة" روائية، تستشرف المستقبل، وترى كيف يكون الإنسان أشد خطرًا من الكارثة ذاتها، (كنبوءة قادمة من مستقبلٍ مخيفٍ مظلم) بتعبير الرواية، ليمثل عبارة الرواية المركزية (كانت الزهور قد دُفنت أسفل الثلج)، لكنها تظل زهورًا، تتوق إلى الحرية والمساواة.

ويستعمل الراوي "التناسخ الروائي" من خلال مشهدية مواقف مناظرة، في إيقاع سردي متوازن مبهور الأنفاس لتجسيم الداهية والإنسانية في توحشها ونبلها بين طرفي نقيض يكشف مغزى الرواية الماتعة، ولم يكن الروائي صاحب شغف بطقس المغامرة والتشويق النابع من بطولة مطلقة، لكنه -كما أرى- صاحب مشروع ورؤية ثاقبة للواقع يمارسها في بث رسالي نبيل، حول المشكلة والحل، ويكفي أن نشير أن رواية "الشتاء الأسود" كاملة مثلت تشغيلًا لآلة الزمن السردية بتقنية الاسترجاع الخارجي "خارج زمن الحكاية" لرواية الكاتب الأخرى "ملاذ - مدينة البعث"، فيا أجمله من فكر وسرد.

"... أفيقوا

انفضوا عن أعينكم هذا النوم الماكر شبيه الموت

وحدّجوا في الموت نفسه..."

مَكبِث ـ ويليام شكسبير

الفصل الأول

تعالى صوتُ أزيز حاد في الغرفةِ المُعْتِمة، وخيوطٌ من ضوءٍ شاحب تتسللُ من وراءِ الستائرِ القماشية التي تغطي النافذة تكافحُ لتبديدِ بعضِ الظُلمةِ. ألحَ الأزيزُ بإصرارٍ حتى فتحَ زيادُ المتمددُ على سريره في الظلمةِ عينيهُ في تكاسلٍ، واضعًا الوسادةِ على أُذُنَيْه مُتَجاهِلًا الصوت، ولما استمر الأزيزُ بذبذباتهِ الحادة يخترق أذنه مانعًا عقله من العودةِ للنومِ، مدَّ يدهُ إلى هاتفه الموضوعِ على الكومودينو بجوارِ السرير وكَتم الصوتَ لتغرق الغرفةُ في صمتٍ تام؛ ما عدا صوتَ زقزقةِ عصافير الصباح خارج نافذةِ الغرفة. أغمض عينيه في تكاسلٍ محاولًا أن يُعيد النومَ الذي هربَ منه، ولكن اليقظةُ كانت قد بدأت تزحفُ إلى عقلهِ؛ لم يَكُنْ هناك مفرٌ من الاستيقاظ. وكأنما لِتُؤَكِّدُ أفكاره سمعَ صوتَ أخته فريدة تناديه:

- الفطور يا زياد.

تجاهلَ الصوتَ واضعًا رأسه أسفلَ الوِسادةِ وهو يَزْفُر في ملالٍ، ولكن بعد بِضْع دقائقِ دَلَفَت أختُه إلى الغُرفةِ وهي تقولُ ضاحكةً:

- استيقظ أيها الكسول.

تبعت قولها بجذبِ الستائرِ جانبًا، مُفسِحة الطريق لضوءِ الشمسِ كي يُغْرِق الغُرفةَ، ويغسِلها بنورِه، باعثًا بعض الدفءِ في هذا الصباح البارد، ثم التفتتَ إلى أخيها المتظاهرِ بالنومِ وقالت مازحةً بغضبٍ مُصْطَنع:

- سنتأخرُ عَنْ المدرسةِ.

أجابها مُتمتمًا من أسفلِ فراشه:

- أنتِ فقط في المدرسةِ، أنا أصبحتُ في الجامعةِ الآن.

قالت بغيظٍ طُفولي:

- سألحقُ بِكَ بعد عامٍ واحد.

مع نُطْقها لآخرِ كَلِمةٍ جذبتْ الغطاءَ من فوقِه، فقفزَ من فراشِه في غضبٍ، ولكنها رَكضت مُبتعدةً عنه وهو في إثْرِها، وتعالى صوتُ خطواتِهما على الدرجِ الخَشبي وهما يهبطان إلى الطابقِ الأرضي ليشقُ سكونَ الصباحِ الهادئ، فقالت أمهما بحزمٍ:

- توقفا عن الشجارِ وأسْرِعا لتناول فطوركما.

نظر زيادُ ناحيةَ مِنضَدةِ الطعامِ التي تراصت عليها عدةُ أطباقٍ يتصاعدُ منها البُخارُ الساخنُ، ووجد مِقْعَدَ أبيه فارغًا، فسأل أمه متعجبًا:

- ألم يَأتِ أبي بَعد؟

قالت أمه وهي تتناولُ إفطارَها في عُجالةٍ:

- لقد اتصلَ بي وقال إنه سَيتأخرُ في المُستشفى، يبدو أن لديهم بعضُ الحالاتِ الطارئة.

كان زياد مُعتادًا على تَغَيُّبِ أبيه، الذي يَعملُ في أكبر مُستشفى في أسيوط، ويبيت عِدّة ليالٍ في المُستشفى إذا لزِمَ الأمرُ، أحيانًا تمضي فترةٌ طويلةٌ دونَ أن يراهُ بسببِ انشغالهُ في العملِ. قالت فريدة التي سَمِعَت الحوار مازحةً كعادتها:

- هل أنتِ متأكدةٌ أنه لمْ يتزوجُ عليكِ ويبيت عِند زوجته الأُخرى؟

حدَّجتها أمها بنظرةٍ مُعاتبة، فقال لها زياد:

- كُفِّي عن المُزاحِ يا طويلةَ اللسانِ.

تناولَ ثلاثتهُم وجبةَ الإفطارِ، ثم ذهبَ كلٌ منهم إلى غُرفته لارتداءِ ملابسهُ والاستعدادِ ليومٍ جديد. لم يأخُذ زيادُ معه سوى دفترِ مُحاضراته الذي كان فارغًا إلا من بعضِ الخربشاتِ والرسوماتِ السريعة ودوائرِ الماندالا التي يرسُمها أثناءِ المُحاضرات حين يَشعرُ بالملل، أما فريدة فقد حملت حقيبةَ ظهرٍ كبيرة مُمْتَلِئةٌ بالكتبِ والدفاتر، بسبب كونها في الصفِ الثالثِ الثانويّ، وهي سنةُ شهادة كما تُخبرها دومًا أمها، ويقع على عاتِقها ضغطٌ كبيرٌ بسبب كون أبيها - الدكتور سيف الدين - طبيبًا شهيرًا، وأمها الدكتورة سُمية علم الدين رئيس قسمِ الهندسةِ الوراثية بكليةِ الزراعةِ جامعة أسيوط، ودائمًا ما

تُقَارَنها بأخيها زياد الذي التحقَ بكليةِ الهندسة كي تتشجعُ وتتفوقُ مثله، ولكن تلك المُقارنةِ كانت تُصيبها بالإزعاجِ، وتجعلها تسعى دومًا لمُشاكسةِ أخيها.

كانت أمهما قد استعدت للذهابِ للعملِ بدورها، فخرجَ ثلاثتُهم من بابِ المَنْزلِ ليستقبلهُم هواءُ الشتاءِ اللاذع، وتصاعَد البخارُ من أفواههم مع أنفاسِ الصباحِ الباردة. توجهت الأمُ ناحيةَ المرأبِ حيث تقف سيارتها، ولاحظ زياد أن سيارة أبيه موجودة بدورها، فأدرك أنه قد ذهبَ للعملِ بدونها، رُبما بصحبةِ أحد أصدقائه كعادته، فهو لا يُحب القيادةَ، وقد ألحَ عليه زياد مرارًا كي يُعلمه القيادةَ ليستخدمها بدلًا من تركها هكذا بلا نفعٍ، وقد علَّمه أبيه الأساسياتَ بالفعل، وعندما يُتقنها تمامًا سيستخرج رخصة قيادة. استقرت أمُهما أمامَ المقودِ، وزياد في المقعدِ المجاور، وفريدة في المقعدِ الخلفي، وأدارتَ سميةُ المفتاحِ لتدير محركَ السيارةِ، فزأرَ في الصباحِ الهادئ كوحشٍ أسطوريّ يستيقظُ من سُباته الطويلِ مُحْتجًا، قبلَ أن تتحركُ السيارةُ مُخترقة شوارعِ الحَيّ الراقي في مدينةِ أسيوط. أدارت الأمُ مِفْتَاحَ المِذْياعِ لتشغيله، فجاءَ صوتُ المذيعِ ينقلُ أخبارَ نشرةِ الصباحِ بصوته الرسمي الرتيب قائلًا:

- ... وازدادتُ حدةُ التوترِ بين المُعَسْكرين الشَرقيّ والغَربيّ، بعد انضمامِ الصين وروسيا إلى كوريا الشمالية، في مواجهةِ أمريكا وحلفِ الناتو، وسط تَخَوُّفٍ دَوْلِيّ من تَصَاعُدِ الأمرِ في ظلِ الحالةِ العَقْلية غير المُتَّزنةِ للرئيس الكُوري، في الوقتِ الذي يُبدي فيه الرئيسُ الأمريكيّ من جانبه تهورًا في تصريحاته التي تُهاجمُ رؤساءَ المُعسكرِ الشرقيّ، وسط تخوفاتٍ دولية من أن يُؤدي هذا التصعيدُ إلى ...

زفرَ زيادُ في مللٍ ووضعَ سمّاعاتُ هاتِفه في أذنه وشغَّلَ بعض الأغاني رافعًا الصوتَ إلى أقصى درجةٍ له، ثم عادَ لتأمُّلِ الشوارعِ خارج النافذة. كانتْ الشمسُ قد أخذت تعتلي الأفقَ، وتبسُطُ أشِعَتها الدافئةَ على الطرقاتِ التي خلتْ إلا من عددٍ قليلٍ من السياراتِ والمارة في الطُرقات، بعضُ التلاميذِ في زيِّهم المُوحدِ مُتجهين ناحيةِ المدرسةِ، وبعضُ المُوظفين الذين يُحَتِّم عليهم عملهم الخروجَ في مثلِ هذا الصباحِ البارد.

وصلتْ السيارةُ إلى المدرسةِ الثانويّة حيث تدرس فريدة، فقفزت من السيارةِ حاملةً حقيبتها وهي تُلوِح بيدها مودعة لأمها وأخيها، ثم ركضت باتجاه صديقاتها اللاتي استقبلنها بضحكاتٍ مَرِحة، وسارعن للدخول من باب المدرسة، ولمح زيادُ عبر الباب المفتوح الطالبات وهن يصْطَفِفْن في طابور الصباح المدرسي، وتذكَّر أيامَه في المدرسةِ حين كان يَضْطَر للقيام بكل تلك الطُقُوس الروتينية المُمِلَّة، ثم أراح رأسه على المِقْعَد وابتسم وهو يُغْمِض عينيه، لقَد تجاوز كل ذلك.

أكملت السيارةُ طريقها إلى جامعة أسيوط، وعبرت البوابة الحديدية الضخمة التي فُتحت أمام الدكتورة سُمَيَّة بمجرد أن رأى الحرسُ الجامعي عربتها المُمَيزة وهي تقترب، وألقوا عليها تحيةَ الصباحِ فأجابتهم مُبتسمة، أما زياد فقد لاذ بصمته المُعتاد يستمع إلى الموسيقى من هاتفه، حتى أصبحت السيارة أمام كلية الهندسة، فوَدَّع أمه بكلماتٍ سريعةٍ وهو يَرْكُضُ عبر طُرقاتِ الكلية ويُشَاهِد بعض الطلبة والطالبات جالسين في كافيتريا الجامعة يَلُوذُون من البردِ بالمشروبات الساخنة ويتبادلون الضَحكات بصوتٍ عالٍ. لم يكن زياد

من النوع الذي يحب الاختلاط - في واحدةٍ مما يُطْلِقون عليها اسم "الشلة" - حاول بعضهم التقرب إليه في بداية العام الدراسي، ولكنه بدا لهم مُنْطويًا غريبَ الأطوارِ، فتركوه وشأنَه، وهو بِدَوْرِه أحَسَّ بالارتياح لذلك، أصبح بالنسبة لهم ظِلًا يتحرك بينهم فلا يلتَفِتون إليه، أما هو فالسمَّاعات في أُذُنَيه تجعله في عالمٍ آخر، مُنعزلًا عما حوله، عالمه الخاص.

كانت المُحاضرة الأولى على وَشك البدءِ، فسارع باتجاه المبنى، وجلس وحده في آخر المُدَرَّج كعادتِه، ولم تمضِ بِضْعُ دقائق حتى دخل المُحَاضِر ورحَّب بالطلبة وبدأ مُحاضَرته ولم ينتبه زياد لما يقول، كان يَخُط بِضْعَة دوائرِ في دفتره، راسمًا واحدًا من أشكالِ الماندالا، كانت واحدةً من تلك الأشياء التي تعلمها في كلية الهندسة وتعلق بها، هناك شيءٌ ما جَذَّاب في رسم تلك الدوائر، قرأ فيما بعد أنها لها أصلٌ في الهِنْدُوسِيَّة حيث تُشِير إلى الكون والتوازن بين العالم المادي والروحي، قبل أن يتم استخدامها في الهندسة، ولكنه لم يتعمق في الأمر، يَكْفِيه أن يرسم، ويرسم، ويِنْعَزل عن العالم.

مضى الوقتُ بطيئًا، كم تبقى على انتهاء المحاضرة؟ تمنى لو ينتهي اليومُ سريعًا، يا له من ملل! كم تبقى من محاضرات؟ فجأة حَلَّ صمتٌ على المُدَرَّج، جعله هذا الصمت ينتبه، فقد تَكَيَّف على الأصوات المُرتفعة المختلفة من حوله في المُدَرَّج، شَرْحُ المدرس وأسئلة الطلبة والتعليقات الجانبية، فأصبح لهذا الصمت المُفَاجِئ دَوِيٌّ في عقله. انتزع السمَّاعات من أُذُنَيه ورفع رأسَه عن دفتره، كان الدكتور يقف عند باب المدرج يُخَاطِب أحدهم بشكلٍ بالغ

الجدية، وقد انعقد حَاجِبَيه في صرامةٍ، ثم التفت إلى الطلبة وقال لهم:

- لقد انتهت المحاضرةُ، واليوم الدراسي بِرُمَّتِه، عليكم العودةَ إلى منازِلِكُم على الفور.

رغم أن زياد في المعتاد كان سيكون مبتهجًا للعودة إلى بيته مُبكرًا، إلا أن الأمر بَدَا له غريبًا وغير مُعتادٍ، وهو لا يحب الغرابة، يُحِبُ أن يدور كلُ شيءٍ حوله في دِقَّةِ الساعة، انتزعه من أفكاره رنينُ هاتفه، إنها أمه، رفع الهاتف وقال:

- مرحبًا.

جاءه صوت أمه وهي تقول له بنبرةٍ متوترة:

- اسمعني جيدًا يا زياد، توجه الآن إلى مدرسة أختك وخذها للبيت على الفور. آه، كِدْتُ أنسى، عليك أيضًا الذهاب إلى السوبرماركت وشراء كل ما تَقْدِر عليه من طعامٍ قبل العودة إلى البيت.

قال زياد بعصبية:

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

قالت له أمه:

- أنا متوجهة الآن إلى القاهرة، فقد وصلني استدعاء على وجه السرعة، سَيُخْبِرك أبوك بِكُلِ شيء. فقط لا تغادر البيت، واعتنِ بأختك جيدًا، أحبك.

قال زياد:

- وأنا أيضًا أحبكِ.

رددها وعقله غارقٌ في أفكارٍ كثيرةٍ حَيْرَى، انتبه إلى أنه ما يزال واضعًا الهاتف على أذنه رغم انتهاء المكالمة، ولكن الجميع من حوله كانوا يتحركون بخطواتٍ مُتَعَجِّلة، لم ينتبه أحدٌ إليه، أما هو ففكر في أخته، لِحُسْنِ الحظ أن مدرسة أخته قريبة من الجامعة، فتوجه ناحيتها على الفور، أَحَسَّ بحركةٍ غير طبيعية في الشوارع، ولكنه لم يقف ليسأل. أكمل سيره تِجاه المدرسة الثانوية، وهناك وجد الطالبات يَخْرُجْن أفواجًا ويتوجَّهن ناحية الحافلات، فأخذ يبحث بعينيه سريعًا عن أخته، حتى رآها تمشي عابثةً وَسَطَ زميلاتها، فأسرع إليها وجذبها من يدها بقوة، فتأوهت وقالت محتجة:

- مهلاً!

ولكنه لم يلتفت إليها وهو يسير ناحية باب المدرسة، فجذبت يدها من قبضته المُتَشَبِّثة وقالت بغضبٍ مُحتَج:

- ماذا دَهَاك؟

قال لها وهو ينظر إلى الفوضى من حوله:

- لا أعرف، يبدو أن العالم قد أصابه الجُنون.

لم تفهم ما الذي يعنيه، فأكمل:

- لقد حدثتني أمي، أخبرتني أنها مُتَوجِّهة إلى القاهرة، وكل تلك الفوضى، شيءٌ ما غريب.

شاركته أخته حيرته، وقالت بخوفٍ:

- وماذا سنفعل إذن؟

تذكَّر زياد حديث أمه فقال:

- سنذهب إلى السوبرماركت قبل أن نتوجه للبيت.

كان هناك سوبرِ ماركت كبير في قلب المدينة، من هذا النوع المُكيَّف الذي تَتَراصُ فيه البضائعُ مختلفة الأشكالِ والألوانِ، تسيرُ فيه دافعًا عربة اليد، مسحورًا بالألوان والروائح المُنبعثة من البضائع، مَزيجٌ غريب لا تجده إلا في السوبر ماركت، ولكن هذه المرة كان هناك زحامٌ غريبٌ، والناس تحمل كل ما تقدر عليه.

تناول زياد بعض الطعام المُعَلَّب، وأكياسَ البطاطس المقلية، وعدد من زُجاجاتِ المياه المعدنية، بينما تناولت أخته بعض قِطع الشوكولاتة، ثم توجها إلى الكاشير للمحاسبة على ما أخذاه، فوجدا أمامهما طابورًا طويلًا من الناس، وبعد ما يَقْرُبُ من ساعةٍ جاء دور زياد أخيرًا فأخرج بِطاقة الائتمانِ من محفظته ودفع الحساب، وما أن انتهى حتى خرج وأخته من السوبر ماركت وأشارا لسيارة أجرة كي تُقِلَّهما إلى البيت، وبعد أن انطلقت السيارة سأل زياد السائق:

- ما الذي يجري؟

هزَّ السائقُ كَتِفَيه في لا مبالاة وقال:

- يبدو أن الحرب العالمية الثالثة قد اندلعت.

اتسعت عينا زياد في ذهولٍ وقال:

- هل تمزح؟

امتدت يدُ السائقِ إلى مفتاح الراديو لتشغيله، فجاء صوتُ مُذيعٍ يتكلم بانفعالٍ شديد، مختلف عن الصوتِ الرتيبِ المُعْتَاد:

- .... وأدَّى انفجارُ الصاروخِ المُحَمَّل بالرأسِ النووية على الساحل الشمالي الأمريكي إلى مقتل الملايين، وارتفاع سُحب الغبار في السماء، فيما لا يُستَبْعَد أن يكون الردُ الأمريكي باستخدام السلاحِ النووي، لتُصبح حربًا عالميةً ثالثة، وقد أشار الخُبراءُ إلى أن تَصَاعد الدُخان والغبار المُتَواصِل إلى طبَقات الجو العليا سيؤدي إلى حَجْبِ أشعةَ الشمسِ وانخفاض درجة الحرارة بشكلٍ كبيرٍ مما يُهَدِّد الأرضَ بخطرِ الشتاءِ النووي، ونَهيبُ بالسادةِ المواطنين ...

حدث تَشْوِيْشًا حادًا على الصوت، فقال زياد:

- تبًّا!

ثم أخرج هاتفه ليبحث على الإنترنت عن مزيدٍ من التفاصيل، ثم أرجَعَ رأسه للوراء وقال بغيظ:

- لا توجد إشارة!

نظر عبر النافذة الزجاجية إلى الشارع، الفوضى في كل مكان، والناسُ تَرْكُضُ هنا وهناك، السياراتُ تُسْرِع إلى مكانٍ ما، العالمُ انقَلب رأسًا على عَقِب.

توقفت سيارةُ الأجرة أمام بيتهما، فنقد زياد السائق أجرته، وحمل الأكياسَ العديدة إلى البيت، وأخذ يُنادي على أبيه، ولكنه لم يكن بالبيت، هذا غريب!! كان من المفترض أن يعود بعد نوبته المسائية! استلقى على الأريكة وشغل التلفاز، كانت الصورة مشوشةً للغاية، والصوتُ مُتَقَطعاً، ولكنه استطاع التقاط بعضَ الكلماتِ، إنهم يتحدثون عن حربٍ نوويةٍ، وشتاءٍ نووي، ونهاية العالم! لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى انقطع الإرسالُ تمامًا، حتى الهاتف لم يلتقط أيَ استجابةٍ من الشبكة، فجلس في مَوضِعه يُفكر فيما يحدث حوله، كان الوقت قد قارب الظهيرة، ولكن الجو بدا كأنه مغيبُ الشمسِ، ضوءٌ أحمرٌ باهت يَصبغُ كلَ شيءٍ، أخذ زياد يلعب بعض الألعاب على هاتفه لتزجية الوقت، ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ تمنى لو يعرف أي شيء مما يدور حوله.

مرت الساعاتُ بطيئةً وثقيلةً، اللونُ الأحمر يختفي بالتدريج لتَحِلَّ مَحلَّه ظُلْمَةٌ غريبةٌ غير مُعتادة، ودرجاتُ الحرارةِ تأخذُ في الانخفاضِ، رغم أنهم بالفعل في فصل الشتاء، ولكن هذا بدا كشتاءٍ آخر، شتاءٌ مُخِيفٌ قارسٌ يزحفُ على الكونِ ويُغَلِّفه برداءٍ باردٍ مُظْلِم. فكر زياد أن عليهما تناول شيئٍ ما رغم أنه لم يشعر بجوعٍ حقيقي ولكنه فكر في أخته، فأخرج علبتين من الطعام المُعَلَّب، وناولها واحدةً، ثم جلسا لتناول الطعام، دون أن يَنْبُسُ أحدهما ببنتِ شِفَة. كان زياد يتناول طعامه بلا شهيةٍ حقيقيةٍ، تمنى لو أن أبيه وأمه معه في تلك اللحظة، أن يكون هناك أحدٌ كبيرٌ بجواره يحتضنه ويُطَمْئِنه ويُخْبِره أن كلَ شيءٍ سيكون على ما يُرام، ثم نظر إلى أخته وهي تتناولُ الطعامَ بيدٍ مرتجفةٍ، وأدرك الحقيقة فجأة، هو الكبير في ذلك الموقف، عليه طمأنة أخته.

مَدَّ يَدَه إلى يَدِها الباردة المُرتَجِفَة، لم يَقُل شيئًا، ولكن فريدة أدركت ما يَعْتَمِل في صدره، فنظرت له بامتنانٍ، ولم تقل شيئًا بدورها، وأكملا طعامهما في صمتٍ، لم يكن هناك ما يُقال.

أصبحت البُرودة لا تُطَاق مما اضطرهما لارتداءِ عِدة طبقاتٍ من الملابسِ الثَقِيلة، كما أغْلَقُوا كلَّ النوافذِ للوقايةِ من هذا البرد، اختفى الضوءُ الأحمرُ الباهتُ لِتَحِلَّ محله الظُلْمَةُ القاتِمةُ المُخِيفةُ، لم يكن هناك أثرًا في السماءِ لشمسٍ أو قمرٍ أو نجومٍ، كأن السماء قد غطتها ستارةٌ سوداءٌ كثيفة.

حتى هذه اللحظة لم يظهر أبوه أو أمه مما أثار قلقه، أمسك بهاتفه يحاول الوصول إلى أي إشارةٍ من الشبكة للاتصال بوالديه بلا فائدة، لم يستطع أيضًا الدخول إلى الإنترنت؛ لمعرفة ما الذي يحدث حولهما في العالم، حتى التلفزيون والراديو لم تأتِ منهُما إلا إشاراتٌ مُشَوَّشَةٌ وأصواتٌ استاتيكية مُتَقَطِّعة، بدا كأنهما قد أصبحا مُنْعَزِلَين تمامًا عن العالم، وعندما ظن زياد أن الأمور لا يُمكن أن تَسُوء عن ذلك؛ انْقَطَعت الكهرباءُ.

الفصل الثاني

غَرِق كلُ شيءٍ في الظُلْمَة لحظة انقطاعِ الكهرباء، فصرخت فريدةُ في رعبٍ وهي تبحث عن أخيها في الظُلْمَة، فقال وهو يتجه ناحية مصدر صوتها:

- لا تخافي! إنه مُجرد انقطاعٍ في الكهرباء، سأُحْضِر الكشَّاف الكهربائي.

التصقت به فريدة وهو يَصْعَدُ للطابقِ الثاني للبحث عن الكشَّاف الذي يعمل بالبطاريات، ومن نوافذ البيوت المحيطة بهم بدأت تظهر أضواءٌ صفراءٌ شاحِبة، بعضها لكشَّافات كهربية، والبعض الآخر لشموعٍ أو مصابيح زيتية من الطِرازِ العتيق، وفي تلك اللحظة وِاتاهُ هَاجِسٌ مُزْعِجٌ، كم من الوقتِ ستنقطع الكهرباء؟ رُبَّما أيام! مَنْ يدرِ؟ فقال لفريدة:

- سأذهبُ لشراء بعض البطاريات.

فقالت له فريدة بخوفٍ:

- سآتِي مَعَكَ.

فقال لها زياد:

- يجب أن يبقى أَحَدُنا في البيت تَحَسُّبًا لعودة أبي.

حاولت فريدة أن تعترض بعنادٍ طفولي، ولكن كلامه كان أكثر منطقية وعقلانية، فاضْطُرت للرضوخِ إلى الأمرِ الواقع، ثم اسْتَلْقَت على الأريكة عاقِدةً ذراعيها أمام صدرها في غيظٍ، أما زياد فقد انتعل حذاءً ثقيلًا وأَحْكَمَ إغلاقَ المِعْطَف السميكِ الذي يرتديه، ثم خرج من باب البيت وأغلقه وراءه بالمفتاح، وسار عبر الشوارع المُتَدَثِّرة بالظُّلْمَة.

كان هناك عددًا قليلًا من الناس في الشارع، بعضهم يحمل كشَّافاتٍ كهربائية يُضِيءُ بها طريقه، وبعض الأطفال يلعبون أمام بيوتهم المُتَسَلِّلُ منها الضوءُ الأصفرُ الشاحبُ رغم برودة الجو، مَرَّ أمام المسجدِ الوحيد بشارعهم، فوجده مُكْتَظًّا بالمصلين، والإمام يدعو الله أن يرفع تلك الغُمَّة عن الناس، كذلك تَنَاهَي إلى مسامِعه صوتُ دقاتِ أجراس الكنيسة الموجودة بالميدان على مبعدٍ منهم، أحَسَّ زيادُ أنها نهاية العالم.

وصل أخيرًا إلى سوبر ماركتٍ صغيرٍ بنهاية الشارع، فوجده مُزْدَحِمًا بالزبائن، إلا أن صاحبَ السوبر ماركت وضع قانونًا صارمًا، لا يستطيع الواحد أن يأخذ من أي بضاعةٍ إلا نسبةً مُحَدَّدَة؛ لكي ينال الجميع فرصتهم في الشراء، كما أن كل شيءٍ تَضَاعَفَ ثَمَنُه الضِعْفَين والثلاثة، وحُجَّته أن الأمر "عرضٌ وطلب".

زَفَرَ زيادُ وقال لنفسه:

- يا له من جَشِع!ط

اشترى عددًا من البطاريات، وزجاجة مياهٍ كبيرة، وبعض المُعَلَّبات، قبل أن يقطع طريق العودة إلى بيته، مارًا أمام المسجدِ والكنيسةِ والوجوه الخَائِفة والأطفالِ

اللاهين العابثين، غير عابئين بما يدور حولهم، أو لا تَقْدِر عقولهم الصغيرة على استيعابه بعد، كم يحسدهم!

أَوْلَجَ مفتاحَ البيتِ في البابِ واسْتَعَدَ لفتحه عندما سمع صوتًا يُنَادِيه من وراءه:

- زياد.

التفت بحركةٍ حادةٍ، ولكن المُنَادِي كان الأستاذ عِماد - جارهم في البيت المقابل - رجل في الخمسين من عمره، له زوجة في مثل عمره تقريبًا، وطفل في العاشرة من عمره أنجباه في سنٍ كبيرة، وسَمِعَ عماد يقول له:

- هل الدكتور سيف الدين موجود؟

قال له زياد بأسفٍ:

- لا لم يَعُد بَعد.

ثم أَرْدَفَ وهو يفتحُ البابَ:

- لِمَ لا تأتي وتشرب شيئًا ساخنًا معنا ؟؟

ركضت فريدة ناحية الباب على الفور بمجرد سماع صوت فتح القفل سعيدة بعودة أخيها، ورحبت بدورها بالأستاذ عماد، والذي جلس معهما في صالة البيت، ثم قال:

- هل أنتما بخير؟

أَطْرَقَ زياد؛ هل هما بخير؟ وهل هناك أحد بخيرٍ في تلك الظروف القاسية المُخِيفة؟ لم يعرف بما يُجِيْبه، فأكمل عماد:

- لقد اتصلت أمكما بزوجتي وأخبرتها بتوجهها إلى القاهرة وطلبت منها أن تعتني بكما.

سأله زياد بقلق:

- هل تعرف شيئًا عما يدورُ حولنا؟

زَفَرَ عماد وهو يَفْرُك يديه لِبَث بعضَ الدفءِ فيهما وقال:

- لا أعرف سوى ما يعرفه الجميع، لقد اندلعت الحربُ النووية اللعينة، ما خشيناه لِعُقُودٍ قد حدث بالفعل، هذا ما يحدث عندما يصل المُخْتَلُّون إلى سَدَّةِ الحُكم، ويمتلكون أكواد إطلاق الصواريخ النووية.

سأل زياد قلقًا:

- كم سيستمر هذا الوضع الذي نحن فيه الآن؟

قال عمادُ بحزنٍ:

- لا أعلم يا ولدي، اللهُ وَحده يعلم.

قامت فريدة، وأَعَدَّت ثلاثة أكوابٍ من الشاي الساخن؛ لطرد بعض البرد الذي يَنْشُبُ مخالبه في أجسادهم، لم تكن هناك مياهٌ في الصنابير؛ فاستخدمت المياه المعدنية، بعدما أخبرها زياد أن تستخدم المياه بحرصٍ، ولا تُضَيِّع نقطةً واحدةً، ثم شرب ثلاثتهم الشاي في صمتٍ ثقيلٍ لا يقطعه من حينٍ لآخر إلا صوت الرشفاتِ، وعندما انتهى عماد من كوبه انْتَصَبَ من جَلْسَتِه وهو يقول:

- إن احتجتما أي شيء فأخبراني، سنكون سعداء بمساعدتكما أنا وزوجتي.

وما أن غادرهما حتى حَلَّ السُكونُ مُجَدَّدًا على البيتِ، فأمسك زياد بهاتفه في محاولة يائسة أخيرة للحصول على إشارة، ولمَّا أدرك أنه لا توجد أي إشارة من أي نوع، أغلقه؛ كي يحافظ على بطارية الهاتف مشحونة، فلا يعلم متى سيستطيع شحنه مُجَدَّدًا.

كان قد ظن أن الأمور لا يمكن أن تَسُوء أكثر من ذلك، ولكن كم كان مُخطئًا! ففي المساء، أو في الوقت الذي كان يجب أن يَحل فيه المساء ـ فلم يعد أحد يستطيع التمييز بين صباحٍ ومساءٍ في ظل تلك الظُلمة الموحشة ـ ولولا الساعة التي تُخبرهم بالوقت.

بدأ هطول الثلج، بندفٍ متفرق، تكاثف على السياراتِ وأسطح البيوت، ثم بدأت حِدَّتُهُ تَزْدَادُ كثافةً حتى أصبحت رؤية ما يحدث خارج نافذة البيتِ أكثرَ صعوبة؛ لم يكن ثلجًا طبيعيًا على الإطلاق يُضِيئُ ببياضه؛ بل كان رماديًا كئيبًا كالظُلمة الخانقة التي تُغَلِّفه، راقبه زياد بِحِيرةٍ وتَوَجَّس، من وراء النوافذ الزُجَاجِية المُغلقة، وبدأت درجة الحرارة تنخفض أكثر فلم تَعُد ملابسهما الثقيلة تكفيهما للإحساس بالدفء؛ فزفر بضيقٍ وهو يُتَمْتِم:

- علينا فعل شيء حِيَال هذا البرد القارس!

كانت هناك مِدْفَأة من الطِرازِ القديم في البيت، هذا النوع الذي يعتمد على الحَطَب، ولكنها لم تُسْتَخْدَم من قبل في البيت؛ بسبب اعتمادهم ـ طيلة الوقت ـ على المدفأة الكهربائية، فقضى زياد بعض الوقت في إعدادها، حتى أصبحت جاهزة للاستخدام، ولكن المشكلة أنه لم يكن هناك حطب لإشعاله. أخذ زياد يُقَلِّبُ الأمرَ في ذِهنه حتى تذكر أن هناك بعض الأشجار القليلة في حديقة البيت، سيقطع

إحداهم ويستخدمها في إشعال المِدْفَأة.

بحث في قبو البيت عن بعض الأدوات القديمة، ولحسن حظه عثر على فأسٍ قديمة وسط أدوات الاعتناء بالحديقة، فقضى بعض الوقت لشَحْذِها، ثم انتعل حذاءً ثقيلًا وأحكم إغلاقَ المِعطَف السميك الذي يرتديه، وارتدى قُلُنْسُوةً من الفِراءِ السميك لتدفئة رأسه، ثم خرج إلى حديقة البيت الصغيرة. لم تكن حديقة بالمعنى المُعتاد، ولكن بِضع شُجَيْراتٍ، ورُقْعَة خضراء صغيرة بها بعض الزهور، تحب أمه الاعتناء بها، كانت الزهورُ قد دُفِنَت أسفل الثلج، فأمسك بالفأس وانتقى أصغر الشُجَيرات وبدأ يضرب جِذعها بقوة.

كان الأمر شاقًا ولكن هذا لم يُزعجه كثيرًا، فالعمل الشاق سيدفع بعض الدفء لجسده، والأهم أنه سَيُبْقِي عقله مشغولًا عن التفكير في تلك الكارثة. بعد أن أسقط الشجرة حملها إلى البيت وقطعها لعدة أجزاء صغيرة تصلح للاستخدام في المدفأة، ثم فكر في أمرٍ آخر، فهو يحتاج لشيء يساعد الحطب على الاشتعال، تَذَكَّر سيارة والده الموجودة في المرأب، جعله التفكير في والده يشعر بانقباضٍ في صدره، فقال لفريدة كي يبعد ذهنه عن التفكير في الأمر:

- لِمَ لا تُعِدي لنا بعضَ الطعامِ للعشاء؟

اتسعت عينا فريدة وقالت:

- أنا لا أُجِيد الطهو!

فقال زياد:

- إذن عليكِ أن تتعلمي من الآن، يجب أن نتعلم كيف نعتمد على أنفسنا، فلتُعِدي

أي شيء.

فزفرت وقالت:

- سأُحَاوِل.

بحث زيادُ في البيت عن زجاجةٍ فارغة وخرطومٍ صغير، ثم توجه ناحية المرأب حيث تقف السيارة، وضع الخُرطوم في فتحة خزان الوقود وشَفَطَ بعضَ الوقودِ كما رأى أبيه يفعل من قبل حتى أحس بطعمه في فمه فبصقه جانبًا، ثم خفض الخرطوم ليتدفق الوقود في الزجاجة حتى امتلأت تمامًا. عاد إلى البيت مُجَدَّدًا ووضع الحطبَ في المِدفأة ثم بَلَّلَ الحطبَ ببعض الوقود وأشعل عودَ كبريتٍ وألقاه على الحطب، فاشتعلت النار بصوت الطقطقة المألوف، باعثةً بالدفء في جسده المتجمد، فشعر لأول مرة منذ بدء الكارثة ببعض السعادة.

عادت فريدة من المطبخ وهي تحمل طبقين وقالت:

- لقد أعددت بعض الأرز.

كان ما أعددته أقرب لكتلةٍ من العجين، ولكنهما جلسا بجوار النار يأكلان في صمت، ثم قال لها زياد:

- سننام سويًا بجوار المدفأة.

أحضر زياد من غرفة نومه وسادتين وفِراشًا وغطاءً، وفرشهما على الأرض أمام النار المشتعلة، وأحست فريدة بالإمتنان لذلك، فلا شك أنها كانت ستشعر بالخوف إن اضْطُرَّت للنوم وحدها، وما أن وضعا رأسيهما على الوسادة، حتى راحا في نومٍ عميق.

مرت الأيامُ كئيبةً ورتيبةً ومملةً منذ اندلاع الحرب، لم يعد هناك ما يُفَرِّق بين الليل والنهار، ولا بين يوم وآخر، بفعل تلك الظُلمَةِ الكثيفة، وأحسَّ زياد أن الأيام قد اندمجت، لتصبح يومًا واحدًا طويلًا، وليلًا مُظلِمًا مُستمرًا بلا نهاية، أو فجر يَلُوحُ في الأُفُق. استمر هطولُ الثلج بمعدلاتٍ مُخِيفة، وانخفضت درجة الحرارة انخفاضًا غير مسبوق، وخَلَت الشوارعُ من المارة، ولم يَعُد من صوتٍ، إلا أصداء المساجِد والكنائس البعيدة. حافظ زياد على روتينه اليومي، قَطْعُ الأشجارِ، وتجهيزُ الحطبِ، وإشعالُ المِدفأة، كما قَسَّمَ الطعام المُعَلَّب إلى كميات محددة يومية لا يتجاوزنها، بالكاد يأكلان ما يَسُد رمقهما ويبقيهما على قيد الحياة، يجب عليهما الاقتصاد بقدر الإمكان فلا أحد يعلم كم ستستمر تلك الأزمة، هكذا قال زياد لفريدة.

تضاءل عدد الشُجيرات القليلة في حديقة البيت بشكلٍ ملحوظ، وفي أحد الأيام عاد زياد إلى البيت حاملًا شجرةً صغيرةً وقال لفريدة:

- هذه هي الشجرة الأخيرة!

فسألته فريدة بخوف:

- وماذا سنفعل؟

نظر زياد حوله ثم قال:

- أعتقد أننا سنضطر لحرق بعض أثاث البيت.

قالت له فريدة غير مصدقة:

- ألن تغضب أمي لذلك؟

ابتسم بسخرية مريرة وقال:

- وأين هي أمي؟

بدا الأمر بديهيًا، لن يستطيعا مُواجهة البردِ دون حرق شيءٍ ما، وهكذا انتقى زياد أحد الكراسي الخشبية واستخدم فأسه لتحويله إلى قطع خشبية صغيرة تصلح للاستخدام في المدفأة، يستطيع ما في البيت من أثاث أن يجعلهما يعيشان في دفءٍ لفترةٍ طويلة، ولكن ماذا سيفعلان بعد انتهاء أثاث البيت؟ قرر زياد أن يترك الإجابة على هذا السؤال لوقته.

في ذلك اليوم ارتفعت درجة حرارة سالم ابن الأستاذ عماد وأصيب بالقيء والغَثَيان، ولم تفلح كلُ ضماداتِ المياهِ الباردة في خفض درجة حرارته، وأخذت حالته تتدهور من سيء لأسوء، ولازمت فريدة جارتهما أم سالم، بينما تمنى زياد لو كان أبيهما معهما الآن في ذلك الموقف. فكر عماد في الخروج والبحث عن طبيب ولكن الطرق كلها مُغلقة، والثلج في كل مكان، فاستسلم في يأسٍ بجانب جسد ابنه المريض، أما زياد فتذكر ما سمعه في التلفاز قبل انقطاع الارسال وكَوَّنَ نظريةً بشأنِ هذا الأمر، فقال لأخته هامسًا:

- أعتقد أن هذا الثلج مُحَمَّل ببعض الإشْعَاعِ؛ نتيجة للانفجارات النووية.

ولكن أخته لم تكترث بتلك التفاصيل العلمية، فقد كانت قلقةً على صحة الطفل الصغير، وبحلول الصباح التالي كان سالم قد فارق الحياة.

خيَّم جوٌ من الحزنِ والكآبة على زياد وفريدة، وأصبحا يتكلمان سويًا بالكاد، لا يمنع عقلهما من الانجراف إلى الجنون إلا العمل اليومي المُستمر، وبدا أن الحياة

ستظل هكذا للأبد، إلى أن حدث شيءٌ قَلَبَ الأمورَ رأسًا على عَقِب، وهو الظهور المفاجئ للجيش.

شَقَّ السكونَ هديرُ مُحركاتِ مُدرعاتِ الجيش المُصَفَّحة، على ظهرها كشَّافات ضخمة تُنِيرُ الشارع كله، وجنود يرتدون ملابس واقية وأقنعة غاز زجاجية، أدرك زياد لاحقًا أن الجيش قد فرض الحكم العسكري على كل البلاد، ولكن تلك الأخبار لم تصل إلى حيِّهم إلا بعد وصول الجيش بسبب انقطاع كل وسائل التواصل. بثَّ ظهور الجيش في بداية الأمر الأمل في قلوب الناس، بعد أن كادوا ينسون أن هناك حكومة مسؤلة عنهم؛ حذَّر الجيشُ الناسَ من الإحتكاك بالثلج بشكلٍ مباشر، أو التواجد خارج البيت لفترات طويلة، فلا أحد يعلم مقدار الإشعاع في الهواء أو الثلج. وأعلن المتحدث باسم الجيش أنهم سيقومون بجمع كل الطعام المُخَزَّن لدى جميع المواطنين، ليتم توزيعه لاحقًا بشكلٍ عادلٍ على الجميع.

بدأ جنودُ الجيشِ يَمُرُّون على البيوت لتفتيشها وأَخْذ كلَ ما بها من طعامٍ وشراب، وقبل أن يحين الدور على بيت زياد في التفتيش توجه إلى القبو وحفر حفرةً صغيرة خبأ بها بعض المُعَلَّبات، وبعض زجاجات المياه، ثم ردمها جيدًا، وتمنى ألا يستطيع الجنود العثور عليها. لاحقًا في ذلك اليوم أتى ثلاثة من جنود الجيش، لا يفوقونه عمرًا إلا ببضع سنوات، يفتشون البيت بحثًا عن أي طعامٍ مُخَبَّأ بالبيت، وشاهدهم يحملون كل ما تقع عليه أيديهم من طعام ومُعلباتٍ وزجاجات مياه وغيرها، وفتشوا القبو أيضًا ولكنهم لم ينتبهوا إلى ما دفنه زياد أسفل الأرض، بعدها أعْطُوا زيادَ بِطاقةً تَدُل على أن الموجود بالبيت فردين ليستلم بها حصته من الطعام فيما بعد، وفَهِمَ أنهم يُعطون كلَ ربِ أسرةٍ بطاقةً مُمَاثِلةً بعدد أفراد أسرته، وما أن غادروا

البيت حتى زفر زياد في ارتياح، فقالت له فريدة بخوف:

- ما الذي سنفعله الآن؟

هَزَّ كتفيه وقال:

- سننتظر ونرى ما الذي سيفعله الجيش.

وهكذا دخل مشهدٌ جديد على حياتهما الرتيبة، في كل صباح تظهر إحدى مُدرعات الجيش وتَشُقُّ الظُلمةَ بمصباحها الكهربي الذي يُضِيء الشارع وتُطْلِقُ صَافِرةً مُميزة ؛ ليخرج الناس من بيوتهم ويصطفون أمام الجنودِ الذين يقومون بتوزيع حصص صغيرة من الطعام والشراب عليهم، يحصل كل فرد على عدد من الصناديق الورقية الصغيرة حسب عدد الأفراد في بطاقته، كلُ صندوقٍ به بعض الحبوب أو علبة صغيرة من الطعام المُعَلَّب، وزجاجة مياه صغيرة للغاية، كانت الكميات ضئيلة وتكيفهم بالكاد للبقاء على قيد الحياة، ولم يَعُد أحد يشعر بالشبع أو الارتواء، فتلك المشاعر أصبحت شيئًا من الماضي، أصبحت الأيامُ أكثرَ قتامةً، ولم يعد هناك أي بصيص أمل في الأُفق، هل هي النهاية حقًا؟

الفصل الثالث

وقف زياد في الطابور ويده مُتَشَبِثَة ببطاقته، ينتظر دوره للحصول على نصيبه من المَؤُوْنة. كان الصباحُ باردًا والبُخار يتصاعد من أفواه الواقفين بكثافة، والظُلمة القاتمة لا يُبَدِّدها إلا الضوءُ المُنبَعِث من الكشَّاف الكبير فوق المُدَرَعَة الذي يُكافِح لاختراق الثلج المُتَساقِط كاشفًا ما حولهم. كان الوقت يمر بطيئًا طويلًا، وكأن الطابور لا يتحرك، تَشَاغَل زياد بمحاولة تدفئة نفسه حتى يحين دوره، وفجأة حدث تدافع شديد وسمع صوتًا يائسًا يصيح:

- أطفالي يموتون عليكم اللعنة!

كان أحد الرجال يشتبك مع أحدِ الجُنُود ويحاول الحصول على كميةٍ أكبر من الطعام، ولكن الجُندي ضربه بِكَعبِ بندقيته ليُسْقِطَه أرضاً، ثم رأى زيادُ مشهدًا يفوق كل كوابيسه رعبًا، رأى الجندي يُصَوِّب فوهة سلاحه ناحية الرجل المَطْرُوح أرضًا في الثلج، ويضغط الزناد مُطْلِقًا عدة أعيرةٍ نارية شَقَّ دَوِيُّها سكونَ الظُلمة واخترقت صدرَ الرجلِ لتنفجر منه الدماءُ التي تناثرت على الثلج الرمادي وعلى ملابس الواقفين بالقُرب من المشهد.

تراجع الناس على الفور خوفاً وفزعاً، كانت رسالة الجيش واضحة، لا مجال للعصيانِ أو التمرد، الإجابة ستكون على الفور طلقة قاتلة، هذا هو الواقع الجديد، ولا يوجد أمام الناس سوى التعايُش معه.

انْحَفَرَ هذا المشهدُ في عقلِ زياد، ولم ينسه أبدًا وهو يُراقِبُ مدرعةَ الجيشِ تَشُقُّ الظُلمة بصافِرتها المُميزة، والجنود بأقنعة الغاز الغريبة التي تجعلهم يبدون له كمخلوقاتٍ فضائيةٍ قادمة من عالمٍ آخر. كم مَرَّ عليهم من أيامٍ والجيش يأتيهم كل يومٍ بالطعام والشراب، يكاد يُقْسِمُ أن حياته هكذا مُنْذُ الأزل، لم يكن هناك أيام دافئة تُشْرِق فيها الشمسُ، لم يكن هناك فجرٌ أو غسقٌ أو نهارٌ، بل ظُلمةٌ وصقيعٌ بلا نهاية، والجيش يَمُد يده إليهم بالفُتَاتِ التي تُبْقِيهم على قيدِ الحياة، هكذا كانت الحياة، وهكذا ستكون، أو هكذا ظَنَّ!

كان يومًا مظلمٌ عديمُ الملامحِ كغيره، استيقظ زيادُ كعادته صباحًا دون منبه بفضل تلك الحاسة التي اكتسبها، استعد لسماع صافرة الجيش ولكنه لم يسمع شيئاً، ظل في موضعه ينتظر ويُرْهِفُ السمعُ، وبالنهاية قرر أن يخرج ليعرف الأمر، وجد الناسَ مُتجمعين في الثلج، يَتَلَفَّتون حولهم في خوف وحِيرة، كطفلٍ تائهٍ تركته أمه وحده في مولٍ تجاري كبير، يَتَلَفَّت باحثاً عنها وهو يشعر بالضياع.

مَرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يَتيقَّن الناسُ أن عربة الجيش لن تأتي ذلك اليوم، فعاد الجميعُ إلى بيوتهم بخيبةِ أمل، أما زياد فقد تَوَجَّه إلى القَبْو بحرصٍ واستخرج علبتين من الطعامِ المُعَلَّب المدفون في القَبْو، والتي حافظ عليها الجوُ المتجمدُ من أن تَفْسَد، وتناولَ الطعامَ هو وأخته في ذلك اليوم.

مَرَّ يومٌ، ثم اثنان، ثم ثلاثة، دُون ظُهور عَرَبَة الجيش أو أي أثر لها، ووجد الناسُ أنفسهم في مواجهةِ الحقيقةِ القاسية، لقد تخلى الجيشُ عنهم. حاول بَعْضُهم في ذَرْوَةِ يأسِه البحث عن أي شيءٍ صالح للأكل، آدَمِي كان أو غير آدَمِي، حتى صاحب السوبرماركت أخذ الجيشُ منه كل بضاعته، لم يعد للنقود أي جَدْوَى، أما زياد فقد حرص ألا يعرف أحدٌ بشأنِ الطعام الذي يحتفظ به، وقسمه عليه هو وفريدة بِحِرص، وبأقل كمياتٍ مُمكِنة تُبْقِيْهِما على قيدِ الحياة.

ولكن مُدرعة الجيشِ ظهرت مُجَدَّداً، شَقَّ هديرُ مُحَرِّكَها سكونَ الصباح، وأنارَ الكشَّافُ الكهربي الكبير ظُلْمَة الشارع، وأَطَلَّت الوجوهُ من النوافذ يداعبها الأملُ وتعتريها اللهفةُ، وخرج بعضُهم من منازلهم، ورأوا مجموعة من الجنودِ المُسَلَّحين، بخوذاتهم الزجاجية، مُشْهِرين أسلحتَهم مُحَذِّرين لمن حاول الاقتراب من المدرعة، ولكن لم يكن معهم طعامٌ أو شرابٌ، بل توجهوا لأحدِ البيوت في الشارع، كان صاحبُ البيتِ شخصاً مشهورًا بأنه ذو علاقاتٍ هامةٍ، ويعرف بعضَ الأشخاصِ ذوي النُفوذ، رأوه يُغَادِر البيتَ بصحبة عائلته الصغيرة، ويركبون جميعُهم مُدرعة الجيش، ثم تحركت مجددًا مُبْتَعدة بكشَّافها تاركة الشارع وراءها يغرقُ من جديد في ظُلْمَةٍ قاتِمة.

قال زياد لفريدة:

- لقد أدارَ الجيشُ ظهره لنا.

سألته بفزع:

- ما الذي تَعْنِيه؟

قال زيادُ بجمود:

- ما أعنيه هو أن الجيش قد أدرك أن المُؤَن المُتَاحة لن تكفي لإطعام الجميع، لذا سيتركوننا وراءهم، ويكتفون بإطعام خَاصَّتَهم.

ترقرقت عينا فريدة بالدموع وقالت:

- هذا بَشِع ... بَشِع!

ثم جلست أمام جَذْوَة النارِ المُشْتَعِلة في المِدْفَأَة وضَمَّت رُكْبَتَيْهَا إلى صدرها وقالت بيأسٍ:

- ليت أبي وأمي هنا!

لم يعرف زياد ماذا يقول لها، أحسَّ بقبضةٍ باردةٍ تعتصر قلبه، ظل واقفًا خلف النافذة الزجاجية المُغلقة بإحكامٍ يُشَاهد سقوطَ الثلجِ في الظلام، وأفكارٌ كثيرة تَعْتَمِلُ في ذهنه. كان يفكر في أبيه، آخر ما عِرفَ عنه أنه هناك بالمستشفى، حيث كان يقضي ورْدِيَته المسائية، رُبما منعه انقطاعُ الطرق بفعل هطول الثلجِ والظلام المستمر من العودة لبيته. كان الطعام الذي احتفظ به في القبو يتناقصُ باستمرار، ولم يكن هناك أحد يستطيع أن يَطْلُبَ منه المُساعدة، كلُ شخصٍ يُحاول إنقاذ نفسه أو إنقاذ أقربِ الناس إليه فقط، لم يَعُد هناك مجالٌ لِمَد يَدِ العون إلى أحد، البقاءُ في البيتِ يعني الانتحار والموت البطِيء، لقد حَسَمَ أمره.

لاحظ أن أخته قد غرقت في النوم وهي مُتَمَدِّدة بجوار النار والدموعُ قد جَفَّت على وجْنَتَيْهَا، فغطى جسدها النحيل بالغطاء الصُوفِي الثقيل، ثم نام بِدَوْرِه أمام النارِ بعدما أذْكَاهَا، وتَدَثَّر بغطاءٍ سميكٍ آخَر، مُحاوِلاً أن يُقْنِع عقله المُضْطَرِب

بالحُصُولِ على بعضِ النوم.

في صباح اليوم التالي أخبر فريدة بخطته، فأثارتها احْتِمَالِية رؤية أبيهما مُجَدَّدًا، ولكن عليهما الخروج في تلك الظُلمة وفي مثل هذا الجو، لذا هابت الفكرة؛ فقال لها زياد حاسمًا الأمر:

- هذا أفضلُ من البقاءِ وانتظار الموتِ البَطِيء!

كانت هناك ظِلالٌ داكنة في عيني أخيها، كأنَّ تلك الظُلْمَة الباردة قد انْعَكَسَت على رَوْحِه، ثم قال بعد لحظاتٍ من الصمت:

- سأذهبُ لإحضارِ بعض المُؤَن.

تساءلت فريدة:

- ماذا تعني؟ لقد أخذ الجيشُ كلَ شيء!

فقال لها زياد:

- هذا العجوزُ الخبيثُ صاحب السوبر ماركت، لا شَكَّ أنه يُخَبِّئ بعضَ البَضَائِع.

قالت بخوف:

- هل تعني ... أنك سَتَسْرِقه؟

ابتسم زيادُ بسخريةٍ وقال:

- لا يمكن تَسْمِيتُها سَرِقَة في مِثْلِ تلك الظروف.

ثم أحْكَمَ إغلاقَ مِعْطَفه السميك، وانْتَعَلَ حِذَاءَه الثقيل، فقالت له فريدة:

- سآتي معك.

قال زياد بحزم وهو يضع على كَتِفَيْهِ حقيبةَ ظهرٍ فارغة:

- بل عليكِ أن تَبْقِي هُنا، الأمرُ خطيرٌ، ولا تفتحي البابَ لكائنٍ مَنْ كان حتى أعود إليكِ!

أوْمَأت برأسِها، وودَّعَتْه بعينيها وهو يُغْلِقُ البابَ وراءه ويختفي وسط الظلامِ والثلج. أخرج زيادُ من جيبه كشَّافًا كهربيًا صغيرًا، تَلْفَظُ بطارياته أنفاسَها الأخيرة، يُصْدِرُ ضوءً بَاهِتًا يُضيءُ بالكادِ أسفلَ قدميه. كانت الشوارعُ الثلجية خاليةً، والجوُ ساكنًا، كأن الروح قد فارقت هذا الحي الذي كان يومًا ينْبض بالحياة. وصل إلى السوبر ماركت الذي يَسْكُن صاحبه في الطابق الذي يعلوه.

أخذ يُراقِب المكانَ من بعيد، ولكن لم يكن هناك سوى الصمت، اقترب من البابِ الأمامي وهو يحرص على ألا يُصْدِر صوتًا كيلا يجذب انتباه أحدٍ، فوجده مُغْلقًا بأقفالٍ حديدية. دار حول المبنى بحثاً عن وسيلةٍ للتَسَلُّلِ إلى الداخل، مُخْتَبِرًا كلَ احتمالٍ ممكن حتى وجد إحدى النوافذ غير مُحْكَمةَ الإغلاق، فأخرج من جيبه سِكِّينًا صغيرة الحجم، وأخذ يُعَالِجُ قِفْلَ النافذةِ الذي قاومه في البِدْءِ بِفِعْلِ البرودة والإغلاقِ لفترةٍ طويلةٍ، قبل أن يستسلم أخيرًا وينفتح بِتكَّةٍ خافِته، وبِحِرْصٍ فتح زيادُ النافذة، ثم قفز بخفة ليجد نفسه داخل السوبر ماركت.

أحسَّ ببعض الدفء بعد أن كاد الثلج يُجَمِّد أوْصَالَه فَتَنَهَدَ في ارتياح، ثم استخدم كشَّافه في تَفَحُّصِ المكان من حوله، كانت الرِفُوفُ فارغةً، والفوضى تَعُمُ المكان،

أشياءٌ مُمَزَّقةٌ أو مُتكَسِّرة هنا وهناك. فكر زيادُ بسرعةٍ؛ أين يمكن أن يكون هذا العجوزُ قد خَبَّأَ الطعامَ؟ توجه بعد ذلك ناحية القبو، حيثُ اعتاد صاحبُ السوبر ماركت أن يُخَزِّنَ البضائع، وهبط درجاتَ السُلَّمِ الخشبية، لم يبذل جهدًا كبيرًا لفتح باب القبو، كان هناك العديد من الصناديقِ الفارغة والمُبَعْثَرة، ولكنه ظل يبحث بإصرار، حتى عثر على بابٍ خشبي سِرِّي صغير، مُخَبَّأ بإحكامٍ بين الصناديقِ الفارغة، فأزاح الصناديق بابتهاجٍ ومَدَّ يَدَه لفتحِ الباب الخشبي، الذي قاومه في البداية، قبل أن يستسلم وينفتح بصريرٍ مُزعِج، وتَبَدَّى أسْفَلَه أكوامٌ من الطعامِ المُعَلَّب وزجاجاتُ المياهِ، وبسعادةٍ غَامِرة انتزع زيادُ الحقيبة من وراء ظهره، وبدأ يُكَوِّمُ بداخلها علب الطعام وزجاجات المياه، قبل أن يسمع صوتِ أَجَشٍ يقول من وراءه:

- أبعِد يدك القذرة عن بضاعتي أيها اللص اللعين!

التفت زياد بحركة حادة فوجد التاجرَ العجوز يُمْسِكُ في يديه مسدساً ويُوَجِّه فَوْهَتَه ناحية رأسه، فرفع زيادُ يديه وهو يقول:

- أنا لستُ لِصًا، بل جائعٌ أبحثُ عن بعضِ الطعامِ.

قال له العجوز مُحكمًا أصابعه على مِقبَض مُسدسه:

- كُلكُم لصوص قَذِرُون ترغبون في سرقة بضاعتي، إنها ملكي، من حقي وحدي!

فقال له زيادُ بحدة:

- وما فعلته أنت عندما رفعت ثمنَ البضائعَ الضِعْفَيْنِ والثلاثة في بداية الكارثة؛ ألم يكن سرقة؟

ضحك العجوز ضحكةً مجنونةً وبصق جانباً قبل أن يقول:

- المالُ اللعينُ لم يَعُد له قيمة، يمكنك أخذه إن أردت، أما هذا الطعام فلا يُقَدَّر بمالِ الآن.

ثم اقترب من زيادٍ وهو يقول:

- لِسُوءِ حظك هناك سُلَّمٌ داخلي في السوبر ماركت يصل لشقتي بالطابق الأعلى، ولولا هبوطي الآن لإحضار بعض الطعام لما اكتشفت محاولتك سرقتي.

نظر التاجرُ ناحية حقيبة زيادٍ المليئة بالمُعَلَّبات وقال:

- أفْرِغ ما بتلك الحقيبة.

أطاعه زيادُ وهو يلاحظ يده المتوترة على مقبض المسدس، ثم اقترب العجوز أكثر ومَدَّ يده الأُخرى لتفتيش جيوبِ زياد المُنْحَنِي على الأرض لإفراغ الحقيبة، انتهز زيادُ تَشَتُّتَ ذهنِ العجوزِ لحظيًا فضربه بين قدميه، ولوَى ذراعه وانتزع منه المُسدس، وسقط العجوزُ على الأرض فَزِعاً، وصاح في خوف:

- أرجوك لا تقتلني، خذ ما تريد من طعامٍ ولا تقتلني.

تردد زيادُ قليلًا، لا يستطيع قَتْلَ رجلٍ عجوزٍ، ولا يستطيع تركه هكذا قد يَلْحَقُ به ومن يدرِ ماذا سيحدث بعدها، وفي تلك اللحظات القَلائِل حَسَمَ زيادُ أمره، وهَوَى بكعبِ المُسدسِ على رأسِ العجوز، فطَرَحَهُ أرضًا فاقدًا الوعي، ودماؤه تَسِيلُ من رأسه.

لم يهتم زيادُ بالتفكير بما حدث للعجوز، بل أسرع بتعبئة حقيبته بكل ما تصل إليه يده، ثم نظر إلى المسدس، قبل أن يضعه في حقيبته أيضاً، قفز مُهَرْوِلاً خارج السوبر ماركت، من النافذة ـ التي تركها مفتوحة ـ كأنَّما تُلاحقه الشياطين.

*****

جلست فريدة أمام المِدْفَأة وهي تَضُمُ رُكْبَتَيْهَا إلى صَدْرِها كعادتها، تُحَدِّقُ بنظراتٍ فارغةٍ إلى جذوة النار المُلتهبة، ارتسمت في ذاكرتها مشاهدٌ قديمةٌ عندما كانت تمرح مع صديقاتها لاهية البال، لا يُعَكِّر صفوها إلا الفروض المدرسية المُمِلَّة التي يطلبها المدرسون، والآن تَحَوَّل العالمُ إلى جحيمٍ مُظْلِم باردٍ. كانت تواجه صعوبة في تصديق كل ما يحدث حولها، لطالما تمنت أن يكون كابوسًا وستصحو منه على قُبُلاتِ أمها وحُضن أبيها، ولكن لا، هذا هو الواقع ولا شيء سِواه.

لا تعرف كم مضى عليها من وقتٍ وهي تُحَدِّقُ في المدفأة، قبل أن تسمع صوتَ طَرَقَاتٍ على الباب، هل عاد زياد؟ لا، هو يحملُ مفتاحَ البيتِ، مَنْ إذن؟ ظلت مُتَجَمِّدةً في مَوْضِعِها، تخشى التحرك أو الاقتراب من الباب، بل شعرت كأن قلبها توقف عن النبض وانْحَبَسَت أنفاسُهَا، مرت الدقائقُ بطيئةً حتى توقف طَرْقُ البابِ، فتَنَهَّدت في ارتياح، ولكن ارتياحها لم يدم طويلًا، فقد سمعت صوتًا يأتي من ناحية إحدى النوافذ، كأن أحدهم يُحَاوِل فتحها عُنْوَة. تراجعت في خوف، وبعد قليل سَمِعَت صوتَ النافذةِ وهي تنخلعُ من مَوْضِعِها، ثم أصوات أقدامٍ تقفزُ على أرضِ البيتِ، وصوتٌ خَشِنٌ يقول:

- يبدو أن هذا البيت مهجور، فَتِّشْهُ جيدًا بحثًا عن طعامٍ أو شرابٍ.

أدركت فريدة ما يحدث، إنهم لصوص! تراجعت بِخُطواتٍ حَذِرَة كي لا يكتشفوا وجودها، لم تعرف عددهم بالضبط، بالتأكيد أكثر من واحد، في الحقيقة كانا اثنين فقط، يُمْسِكُ أحدُهُم في يده ماسورةً معدنيةً غليظةً، ويُمْسِكُ الآخرُ بهراوة خشبية، ويُعَلِّقُ في حِزامِه سكيناً عريضةً، وكلٍ منهما يُمْسِك في يده الأخرى بكشَّافٍ كهربيٍ صغيرٍ. أخذا يفتشان البيتَ بحرصٍ على ضوءِ الكشاف الكهربي، ثم أشار أحدُهُما

إلى جذوة النار في المدفأة قائلًا:

- يبدو أن البيت ليس مهجورًا كما ظننا، تَوَخَّ الحذر!

من موضعها بالطابقِ الثاني شاهدت فريدة المُخْتَبِئةُ في الظُلمة الرجلين وهما يفتشان البيت، ولم تعرف ما يجب أن تفعل؛ هل تصرخ لطلب النجدة؟ بدت هذه الفكرة غير واقعية، لا أحد سيُنجد أحدًا في تلك الظروف، كل ما تمنته هو أن يرحلا قبل أن يُدْرِكا وجودها، ولكنها سمعت أحدهما يقول للآخر:

- سأُفَتِش الطابقَ العُلْوِي.

ثم سمعت صوت خطواته الثقيلة وهو يرتقي الدَرْج مُتَّجِهًا ناحيتها، فتراجعت بخوفٍ ناحية غرفتها، وأغلقت البابَ بهدوءٍ قبل أن يصل هذا الرجل لطابقها. جلست مُخْتَبِئَةً بين السرير والحائط تَضُم ركبتيها إلى صدرها، وبدون أن تشعر سالت دموعُها الساخنةُ على خَدَّيْهَا، لم تكن تبكي، فقد تجمدت كل مشاعرها. تردد صدى صوتِ الخُطواتِ الثقيلة في الطابق، تسارعت نبضات قلبها، فلترحل! فلترحل! الخُطواتُ تقتربُ من غرفتها، يكاد قلبها يتوقف عن النبض، سمعت صوتَ مِقْبَضِ الباب يُدار، والباب يُفتح ليتسلل إلى الغرفة ضوءُ الكشاف، لأول مرة تكره الضوء وتتمنى الظُلمة، بدأ الرجل يُفَتِّش الغرفة، وفجأة سقط ضوء الكشاف على وجه فريدة.

اتسعت عيناها في ذُعْرٍ، بينما ابتسم الرجلُ في شراسةٍ وهو يُلَوِّحُ بهراوته الخشبية في حركة دائرية، ويقول:

- مهلًا، ما الذي لدينا هنا؟

رأته يقترب منها، ينحني ناحيتها يربت بيده الخشنة على خدها ويقول:

- هل أنتِ وحدك يا صغيرة؟ أين والديكِ؟

اقشعر بدن فريدة من لمسته، وأحست بالاشمئزاز، فقال لها:

- ستحتاجين لمن يعتني بكِ، لِمَ لا تأتين معي؟

بدأت يَدَهُ تتحس وجهها، وتتسلَّلُ هابطةً إلى رقبتها، ثم مَرَّت على نهدها الصغير، بابتسامةٍ خبيثةٍ ترتسم على وجهه، وفجأة دوى في البيتِ صوتُ طلقةٍ نارية، فارتجفت فريدة، بينما اعتدل الرجل في توتر وصاح:

- ما الذي يحدث هنا؟

لم يتلقَ أيَ إجابة من رفيقه، ولكنه سمع صوتَ خُطواتٍ تصعد السلم وتقترب من باب الغرفة، فتراجع الرجل وأمسك بفريدة وألقى هراوته جانباً، ثم اسْتَلَ السِكِّينَ من حِزامِه ووضعها على رقبة فريدة، وفي تلك اللحظة دَلَفَ زيادُ من الباب مُمْسِكاً بالمسدس الذي انتزعه من الرجل العجوز، والدماءُ تُغَطِي وجهه.

الفصل الرابع

بعد عودة زياد من السوبرماركت حاملًا حقيبته على ظهره لاحظ النافذة المفتوحة عُنْوة، تسلَّل الشكُ إلى نفسه، ففريدة بالتأكيد لن تفتحها في هذا الصقيع! أخرج المُسدس من حقيبته واقترب من النافذة بحرص فلمح ضوء الكشَّاف الكهربي الذي يتحرك في الطابق السُفْلي، وأدرك بفطنته ما يحدث، هناك من اقتحم البيت، أحسَّ بخوفٍ شديدٍ على فريدة، وتمنى أن تكون بخير. وهكذا اعتلى النافذة وقفز بحركةٍ رشيقةٍ مُحاذرًا أن يُصدر صوتًا، واقترب ببطء من مصدر الضوء، فرأى الرجل المُمْسِك بالماسورة الغليظة، وفي يده الأُخرى كشافٌ كهربي يُفَتِشُ البيتَ على ضوئه، وهو يُقَلِب كلَ شيءٍ بلا اكتراث.

فكر زياد، هل هو وحده؟ لم يكن هناك أثر لفريدة، تمنى أن تكون مُخْتَبِئة في مكانٍ آمن، كان يقترب من الرجل بِحَذر كي يُفاجئه، ولكنه خَطَا على قطعةٍ خشبيةٍ صغيرة مُلقاة أرضًا لم ينتبه إليها فأصدر صوتًا، ورغم أنه كان ضئيلًا

إلا أنه تَضَاعف بفعل الظُلمة والسكون، فوصل إلى مَسْمَعِ الرجل الذي التفت بحركةٍ حادة، وقبل أن يفكر زياد وجد نفسه يضغط زنادَ المُسدس ورصاصة تنطلق منه لتستقر في صدر الرجل، فانفجرت الدماء من صدره وتناثرت بضعُ قطراتٍ من الدماء على وجه زياد المذهول وهو يشاهد الرجل يهوي أرضًا مُضْجَرًا في دماءه مُطلِقًا حَشْرَجةً خَشِنَة من حلقه.

تجمَّد زياد في موضعه لثوانٍ قبل أن يسمع صيحةَ الرجل الآخر من الطابق العلوي حيث تقع غرفة نوم فريدة، فقال لنفسه:

- إذن هناك ثان!

لم يشغل باله سوى خوفه على أخته فريدة، وهكذا ارتقى درجات السلم وكل الاحتمالات تدور في عقله بسرعةٍ كبيرةٍ، حاول كَبْح جماح نفسه كي لا يتصرف بتهورٍ يؤدي لإيذاء أخته، ولكن ما أن وصل إلى الطابق الثاني ورأى باب غرفة فريدة مفتوحًا، تحرك ناحيته على الفور دون تفكير. أول ما وقع عليه نظره هو الرجل المُمسك بفريدة، ويهددها بالسكين، فتفجر في أعماقه غضبٌ هادِر، غضبٌ لم يشعر بمثيل له من قبل، فرفع مسدسه ناحية الرجل، وقال آمِرًا بلهجةٍ صارمة:

- أبعد يدك القذرة عنها!

قال الرجل وهو يُحْكِمُ قبضته حول فريدة:

- ابعد مُستَدَّسك هذا، وأفسِح الطريق، إن فعلت شيئًا سأذبحها!

قال زياد بغضب بدون أن يخفض يده الممسكة بالمسدس:

- إن مسست شعرةً منها سأجعلك تتمنى الموت.

بدى صوت زياد باردًا جافًا بشكل لم تعهده فريدة من قبل، وفي عينيه بريق غاضب، مظلم، مخيف. فقال الرجل مُرتَعِبًا من نظراته:

- سأقتلها! أنا لا أمزح!

ظل زياد مُمْسِكًا بالمسدس، والرجل يُحِيطُ فريدة بذراعه، ويده الأخرى تضع السكين على عنقها، فبدا كأن الزمن تجمَّد على هذا المشهد. أحسَّت فريدةُ بالمأزق الذي يعانيه أخيها، عليها أن تفعل شيئًا ما لمساعدته؛ نَفَّذَت على الفور أول ما خطر على بالها؛ عضَّت يَدَ الرجلِ المُحِيطة بعُنُقِها بكل قوتها فصرخ في ألم، وتراخت قَبْضَتُهُ المحيطة بعنقها، فانسَلت منها لأسفل وغطت أذنيها بكفيها، وبدون تفكير ضغط زيادُ زناد مسدسه عدة مرات فاستقرت رصاصات في أماكن مختلفة من جسد الرجل وتناثرت الدماء على فريدة التي صرخت في رعب، فركض زياد ناحيتها، وجُثة الرجل تسقط أرضًا، وأحاطها بذراعيه وهو يقول:

- لا تخافي، كل شيء على ما يرام، أنتِ بخير.

وفي تلك اللحظة استسلمت فريدة لمشاعرها، وأجْهَشَت في بكاءٍ شديد، وهي مُتَشَبِّثة بحضن أخيها.

*****

بدل زياد وفريدة ملابسهما المغطاة بالدماء وارتديا ملابس ثقيلة جديدة، ثم هبطا سويا إلى الطابق السفلي، وشاهدت فريدة جثة الرجل الآخر مُلقاه أرضًا، وثقبٌ دامي في صدره، وبِرْكَة صغيرة من الدماء حوله، فأحسَّت بغثيانٍ شديد وأشاحت وجهها بعيدًا عن المشهد. فكَّرت ماذا لو لم يصل زياد في الوقت المناسب؟ ولكنها لم تستطع الاستطراد في الفكرة، فهزَّت رأسها لطردها من رأسها.

أحكم زيادُ إغلاقَ كلَ النوافذِ من الداخل، ثم غادرا البيت وأغلقه بالمفتاح، وتوجه ناحية المرأب حيث توجد سيارة أبيه. كان يحمل سلاسل حديدية أحضرها من قبو البيت، لفها حول عجلات السيارة للتقليل من انزلاقها على الجليد كما شاهد من قبل في الأفلام الأجنبية، ثم تَفَحَّص المُحَرك جيدًا، تمنى ألا يكون عدم استخدام السيارة ـ لعدة أيام ـ قد أثَّر على البطارية.

توجه إلى حقيبة السيارة ووضع بها جالون بلاستيكي فارغ، والخرطوم الصغير الذي يستخدمه في استخراج البنزين من السيارة، ولم تفهم فريدة لِمَا أحضر معه تلك الأشياء. فتح زياد لها باب السيارة كي تجلس على المقعد الامامي المجاور للسائق، ووضع حقيبة الطعام والشراب على المقعد الخلفي، وخبأ المسدس في (تابلوه) السيارة، لم يعد في خزينته سوى رصاصة واحدة، وأحسَّ بالندم لإطلاق عدة رصاصات على الرجل الذي كان يهدد فريدة، كانت تلك الرصاصات لتنفعه لاحقًا، بدلًا من تلك الرصاصة الواحدة، ولكنه تمنى ألا يضطر لاستخدامها. شاهدته فريدة يُوْلِج المفتاح في مَقُودِ السيارة فراودها هاجِسٌ مُزعج فقالت بصوتٍ خافت:

- ولكنك لا تملك رخصة قيادة سيارة.

فقال زياد ساخرًا وهو يتفَحَّص مُؤَشِّرات السيارة:

- ألم تدركِ الأمر بعد؟ لم يعد هناك قانون، المهم أني أجيد قيادة السيارة.

كان الأمر بديهيًا، ولكن الأحداث الأخيرة قد تفقد أي انسان القدرة على التفكير بشكلٍ متزن، وسمعت أخيها يقول:

- لحسن الحظ أنني لم أستخرج الكثير من البنزين من السيارة لإشعال الحطب، ما زال نصف خزان الوقود في السيارة مُمْتَلِئًا.

فقالت فريدة بتوتر:

- ولكن هل سيكفي لإيصالنا للمستشفى؟

هزَّ زياد كتفيه وقال:

- لا أعلم، ولكن فلنأمل ذلك.

وهكذا أدار المفتاح وهو يضغط على دواسة البنزين برفق، في البدء لم يحدث شيء، فتوتر زياد وهو يُعِيد التجربة عدة مرات، ثم أصدرت السيارة صوت حشرجةٍ مُتَقَطِّعة، قبل أن يدوي هديرُ محركها بصوتٍ مرتفع يَشُقُ سكونَ الظلام، فتنهد زياد بارتياح وهو يتحرك بها خارجًا من المرأب، أطَلَّت بعضُ الأوجه الفضولية من النوافذ المُظْلِمة، قبل أن تنسحب وتختفي من جديد.

أحسَّت فريدة بحزنٍ غريب وهما يتركان شارعهما وراءهما، هذا الشارع الذي وُلِدَت وتربت فيه، أحسَّت كأنها لن تراه مرةً أخرى، ولكن من يدري!

أما زياد فقد انصَّب تركيزه على قيادة السيارة التي اخترقت كشّافاتها أستارَ ظُلمة الشوارع الثلجية بصعوبةٍ مُضينة بالكاد بضعة أمتار من الطريق أمامه، محاولًا أن يطرد عن عقله تلك الفكرة القاتِمة التي تحاول التسلل إليه، ماذا لو وصلا إلى المستشفى فلم يجدا أبيهما هناك؟ لم يبدُ على ملامحه شيئًا من هذه المشاعر الثائرة المضطربة المُعتَمِلة بداخله لكيلا يُصيب أخته بالقلق. تذكَّر هاتفه فشغله، ووضع السماعات في أذنيه، وغرق قليلًا في الموسيقى التي تحمله بعيدًا عن هذا العالم، كما كان يفعل في الأيام الخوالي، حتى أظهر الهاتفُ رسالته التي تُعلن قرب نفاد البطارية، وقبل أن يفعل أي شيء أظلمت شاشة الهاتف، وانطفأ هاتفه للمرة الأخيرة، فوضعه في جيبه وعاد للتركيز على الطريق.

كان حريصًا على ألا يُسرع بالسيارة خِشْيَة الانزلاق على الجليد، ولحسن الحظ فالسلاسل كانت تحافظ على اتزانها بعض الشيء، كانت الشوارع فارغة وساكنة، حتى خرجوا إلى الطريق الرئيسي المُتجه لقلب المدينة حيث تقع المستشفى. كان هناك بعض التجمعات من البشر هنا وهناك، مُتَحَلِّقين حول دوائر ضخمة من النار، أشار بعضُهم له كي يتوقف، ولكنه تجاهلهم تمامًا، وحاول بعضهم أن يعترض طريقه، حتى كاد أن يَدْهَس أحدهم، ولكن هذا لم يحدث لحسن الحظ، ومن وقت لآخر كان يتحسس مسدسه ليستمد منه بعض الطمأنينة، إلا أن أكثر ما أثار خوفهما هو مظهر المباني محترقة بالكامل، هل من فعلها كان يبحث عن الدفءِ أم أن هذا الظلام والصقيع سيجعل الناس يفقدون عقولهم؟

أصبحت السيارة تسير الآن بجوار النيل، كان سطحه مُتجمدًا تمامًا، وضوء كشافات السيارة ينعكس عليه، كم تغير العالم منذ هذه الكارثة، كم مضى عليها، لقد توقف زياد عن حساب الأيام، لقد مرت أيامٌ عديدة مُتشابهة، ربما شهر، أو أكثر! فجأة ضغط مَكابِحَ السيارة، واستيقظت فريدة على تلك الحركة الحادة وقالت له:

- ما الأمر؟

أشار بيده إلى حيث تسقط أضواء السيارة، فرأت مجموعة من السيارات المتلاحمة تُغْلِقُ الطريق، يبدو أنها مجموعة حاولت الهرب من المدينة بعد بدء الكارثة، ربما متوجهين للعاصمة، ولكن السيارات بَدَت مهجورة، فقال لها زياد:

- انتظريني هنا.

فقالت له بخوف:

- ماذا ستفعل؟

فقال لها:

- سأحصل على بعض الوقود للسيارة.

وهكذا خرج من السيارة واضعًا المسدس في حزامه، وتوجه ناحية حقيبة السيارة الخلفية، وأخذ الجالون البلاستيكي والخرطوم الصغير، وبحث بين السيارات عن سيارة ذات خزان وقود ممتلئ، وبدأ يستخرج البنزين منها وهو يكاد يتجمد من البرد، ملأ خزان سيارته أولًا، ثم عاد وملأ الجالون

مُجَدَّدًا كنوع من الاحتياط ووضعه في حقيبة السيارة، وقال بعدما عاد لفريدة:

- والآن علينا البحث عن طريق مختلف للوصول إلى المستشفى.

واستدارت السيارة عائدة أدراجها؛ بحثًا عن طريقٍ جديد يُوصلها إلى المستشفى، وكلما اقترب زياد من قلب المدينة، كلما أصبحت قيادة السيارة أكثر صعوبة، السيارات المهجورة مُتراكمة هنا وهناك، المباني المُحْتَرِقة تُطِلُ بوجهها الشائه المُخيف، المجانين الذين يحاولون إيقاف السيارة أو اعتراض طريقها، لم يستطع زياد أن يغمض عينيه لحظة واحدة، بينما كانت فريدة تتأرجح بين النُعاس واليقظة وهي مُتَّكِئَة برأسها على النافذة الزجاجية.

بعد عدة دوراتٍ حول الميدان الرئيسي وجدا نفسيهما في مواجهة الحقيقة القاسية، عليهما أن يُكملا طريقهما للمستشفى سيرًا على الأقدام، كانت الفكرة مُخيفة، السير في هذا الظلام والثلج نحو المجهول، ولكن هل هناك حل آخر؟ هزّ فريدة التي كانت قد استسلمت أخيرًا للنعاس ففتحت عينيها فزعًا، طمأنها زياد ثم شرح لها الموقف، ظلا لدقائق في السيارة، لم يكن هناك مَفَر من محاولة الذهاب للمستشفى بعد أن قطعا كل هذا الطريق، وهكذا حمل زيادُ حقيبته على ظهره، ووضع المُسدس في حِزامه، ثم راوده خاطرٌ مُخيف، هُطول الثلج سيجعل من المستحيل التعرف على موضع السيارة، سيُغَطِّيها الثلجُ كمثيلاتها، حاول تذكر كل معالم المكان حوله جيدًا، شجرة هنا، يافِطة شِبْه مُحَطَّمة هناك، راقبته فريدة وهو يَجُولُ بعينيه في المكان دون أن تعرف ما بخاطره، وبعد دقائق أمسك زياد بيدها وسارا جنبًا لجنب نحو المستشفى.

كانت الظُلمة شديدةً، والبرودة لا تُطاق، لولا الكشاف الكهربي الصغير الذي

يحمله زياد في يده لما استطاعا الرؤية أبعد من أنفيهما. جذب الضوءُ بعض المتشردين كما تجذب النار اليراعات، ولكن ما أن يرى زياد أحدهم يقترب حتى يَستَلّ مسدسه مهددًا، مما يجعل القادم يتراجع أو يُفسح لهما الطريق. بدا كأن غرائز الناس قد ارتَدَّت إلى طبيعتها البدائية، فلا شيء يُحرك أفكارهم إلا غريزة البقاء.

كلما اقتربا من الميدان الرئيسي لمدينة أسيوط كلما قَلَّ عددُ المتشردين، كما لاحظ زياد انتشار الأسلاك الشائكة في عِدّة أماكن، فتوقع أن يرى رجال الجيش في في أي لحظة، ولكنه ظل يسير بدون أن يرى جُنديًا واحدًا. يبدو أن الجنود قد تمركزوا في هذا المكان لفترةٍ قبل أن يغادرونه، ربما توجهوا للعاصمة، رغم ذلك فقد تقدم بحرصٍ مُمْسِكًا جيدًا بيد فريدة، حتى لمحا المستشفى من بعيد فانتفض قلباهما بمزيجٍ من السعادة والترقب. كانت المستشفى مُضاءة، بشكلٍ أثار بهجتيهما، ولكن أبواب المستشفى كانت مُحصنة ومحاطة بالأسلاك الشائكة، بدون أثر لكائنٍ حي، فوقف زياد أمام الباب وصاح:

- هل من أحدٍ هناك؟

دوى صوته مرتفعًا في سكون الظلمة، وتردد صداه عدة مرات، ومرت لحظاتٌ بطيئة وطويلة كأنها الدهر منتظرًا أن يُجيبه أحد، ولكنه لم يتلقَ إجابة، فتسلل اليأسُ إلى نفسه، وفجأة أضاء كشافٌ كبير كاشفًا ما أمام باب المستشفى، وجاء صوتٌ هادرٌ كأنه يأتي من مكبر صوت يقول:

- ماذا تريد؟

بحث زياد بعينيه سريعًا عن مصدر الصوت ولكنه لم يَعثُر عليه فازدرد لعابه قبل أن يقول:

- أنا زياد ابن الدكتور سيف الدين، وأرغب في مقابلة أبي!

مرت دقائق بطيئة، لم يختفِ الضوء، ولم يتلقَ زيادُ إجابة، فالتصقت به فريدة، وقد تعلقت عيناها بالضوء المُتَسَلِط عليهما. لم يتحركا من موضعهما أمام الباب، بشكل ما بثَّ الصوتُ القادمُ من وراء البوابة الضخمة المُغلقة الأملَ في قلبيهما، وفجأة انفتحت بوابة المستشفى بصريرٍ هائل.

تَبَدَّى لهما من وراء البوابة وجهٌ مُغطى بقناعٍ أسود به عينين زجاجيتين متسعتين كأعين البعوضة، وأمام فمه قرص دائري كبير، أدرك زياد أنه قناع غاز من الأقنعة المستخدمة للوقاية من الغازات السامة، مثل الذي رأى الجنود يرتدونه فيما قبل، ولكن هذا القناع بدا أقل تطورًا من أقنعة الجيش. أشار لهما الرجل بالدخول، فسارعا بذلك، وقبل أن يفتح أحدهما فمه ليقول شيئًا؛ استدار الرجلُ واتجه ناحية مبنى المستشفى الرئيسي، فتَبِعه زياد وفريدة عابرين ساحة المستشفى المُتسعة، تذكَّر زيادُ رؤيته لها خضراء مُبْهِجَة، باتت الآن مُغطَّاة بالثلوج بشكل مُقْبِض.قطع ثلاثتهم الساحة في خطوات واسعة، وما أن اقتربوا من المبنى حتى لاحظ زياد أن كل الأبواب والنوافذ مُغلقة بإحكام. وصلوا للباب الرئيسي، والذي انفتح للحظات قلائل تسمح بدخولهم قبل أن يُغْلَق وراءهم، وسُرعان ما سَرى دِفءٌ لذيذٌ في أجسادهم، فقال زياد للرجل ذي القناع:

- شكرًا لك على السماح لنا بالدخول.

لم يجبهم الرجل بل استمر في سيره قاطعًا ممرات المستشفى، لاحظ زياد وفريدة العديد من المرضي في حالةٍ سيئة متمددين على أسِرّةٍ في الغُرف المختلفة، ومحاليلٌ عدة مُعلَّقة مُتصلة بأوردتهم، وأطباء يتحركون هنا وهناك بين الأسِرّة يرتدون أقنعة غاز بدورهم، انقبض قلباهما لهذا المشهد المخيف، وبعد سيرٍ طويل قطعا فيه عدة ممرات، وجدا أنهما في غرفة مُغلقة بإحكام، بها عددٌ من الأطباء، وأجهزة الفحص، وأمرهما أحد الأطباء بالاستلقاء على منضدتي فحص. كان هناك العديد من المؤشرات والأسهم والخطوط التي تركض على الشاشات المضيئة، وبعد دقائق من الفحص قال أحدهم من وراء القناع بصوتٍ عميق:

- إنهما نظيفان.

وهكذا وجدا نفسيهما يسيران وراء الرجل صاعدان الطابق العلوي من المستشفى، وما أن دلفا من باب الطابق الثاني، وأعاد الرجل إغلاقه وراءهم بإحكام، حتى فك أحزمة القناع من حول رأسه وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال لهما:

- زياد وفريدة حسبما أذكر، أليس كذلك؟

أومأ زياد برأسه فأكمل الرجل:

- مرحبًا بكما، أنا رامي مُساعد الدكتور سيف الدين.

فقال زياد بلهفة:

- هل لك أن تَدُلنا على مكانِ أبينا؟

فقال لهما رامي:

- اتبعاني.

سارا وراءه في الطابق الثاني والذي كان مختلفًا عن الطابق الأرضي، كان هناك بعض الأشخاص المنهمكين في المحادثات المختلفة، بعضهم يقرا كُتُبًا على ضوء المصابيح الكهربية، قال زياد بنبرة فضولية:

- من أين تُزَوِّدُون المستشفى بالكهرباء؟

قال رامي:

- هناك مُوَلِد كهربي مُلْحَق بالمستشفى، كان يُستَخْدَم قديمًا في حالات الطوارئ، ولكنه يُعَدّ الآن وسيلتنا الوحيدة للحصول على الكهرباء.

كان لكلمة قديمًا رنينًا مُخيفًا على مَسمَع زياد، كلمة تُوحي بأن الحياة كما يعرفها قد انتهت، وأن عليه تَقَبُّل الحياة الجديدة كما هي دون الالتفات للوراء.
توقف رامي أمام أحد الأبواب المُغلقة، ثم طرق البابَ طرقاتٍ سريعة، فسمع صوتًا رخيمًا مُنهكًا يقول:

- ادخل.

فتح الرجلُ البابَ، ودَلَفَ زياد أولًا تتبعه فريدة، فرأيا أبيهما مُنكبًا على مكتبه أمامه العديد من الكُتب والأوراق مُستغرقًا فيها على ضوءِ مصباح مكتبٍ صغيرٍ، أحسَّ سيف الدين بدخولهما فقال:

- ما الأمر هل هناك حالات جديدة؟

ولما لم يتلقَ إجابة استدار وهو على وشك توجيه سؤال جديد، ولكنه تَفَاجَا

بوجود ابنيه زياد وفريدة أمامه، فاتسعت عيناه غير مُصدق، ومضت لحظات صامتة بينهم، قبل أن يَرْكُض سيف الدين ناحيتهما ويحتضنهما بشدة والدموع تترقرق في عينيه، ولم يتمالك ابنيه نفسيهما بدورهما، فانهمر ثلاثتهم في بكاءٍ حار، بُكاء الفرح.

الفصل الخامس

جلس زيادُ بجوار أبيه يتناولان الطعامَ من عِلَبٍ صفيحية صغيرة، وعلى مَبْعَدٍ منهما جلست فريدة تتناول طعامها في صمت، فقال سيف الدين:

- انها غاضبة أليس كذلك؟

أَوْمأ زيادُ برأسه وهو يضع في فمه ملعقةً من الطعامِ، ثم قال:

- إنها تشعر أنك وأمي تَخَلَّيتُما عنا.

زفر الأبُ بحرارة وقال:

- لا أستطيع لومكما، ولكن منذ حدوث تلك الكارثة تحولت المستشفى إلى ما يشبه ثَكْنَة عسكرية للمصابين، لم أقدر على التخلي عن كل هؤلاء المرضى، كما أن الظلام والثلج جعل التحرك صعبًا للغاية، كنت أظن أنكما بالبيت مع أمكما، وكنت أدعو الله كل يوم أن تكونوا جميعًا بخير، وأن ألتقي بكم بعد انْزِيَاحِ تلك الغُمَّة.

قال زياد:

- أمي في العاصمة مُنْذُ اليوم الأول للحرب، ظننت أنك تعرف ذلك!

أجابه مُفكِّرًا:

- لقد انقطعت الاتصالاتُ قبل أن أتواصل معها، لا شك أن خِبْرَتها كواحدة من أهم العقول في مجال الهندسة الوراثية في مصر جعلتهم يستدعونها في العاصمة. سيحتاجون لِخِبْرَة العقول إن أرادوا النجاة من تلك الكارثة.

ثم أزاح علبة الطعام جانبًا وهو يقول:

- أتمنى أن تكون هي أيضًا بخير.

توجه ناحية ابنته التي تأكل بصمت وجلس بجوارها، ثم أحاطها بذراعيه، وقبَّل رأسها، ثم قال لها:

- أعلم أنك غاضبة مني يا بُنَيَّتي، ولكن رسالة الطبيب تجعله بصيصَ أملٍ في تلك العَتْمَة، أعرف أنكِ وأخاكِ واجهتما أكثر مما يحتمله أحدٌ في سِنِّكما، وأتمنى لو كنت معكما في كل لحظةٍ، ولكن الأهم هو أنكما الآن معي بأمان، ولن نفترق مُجَدَّدًا بإذن الله.

أحسَّت فريدة بالدفءِ في كلماته فضمته بدورها، ثم أطلقت العَنَان لمشاعرها، وهي تبكي كطفلةٍ صغيرة بين ذراعيه، فرَبَتَ سيفُ الدين على كتفها، وتركها تُفَرِّغ كل مشاعرها في حُضنه.

*****

اتخذت حياةُ زياد وفريدة مُنْحَنًى جديدًا بعد استقرارها في المستشفى، كان المكان دافئًا بالداخل، كما يوجد به كهرباء واستطاع زيادُ شحن هاتفه للمرة الأولى منذ الكارثة، كما كان هناك مخزن من الطعام المُعَلَّب، ولأول مرة يشعران أنهما استعادا شيئًا من حياتِهما القديمة قبل الكارثة.

عرف زياد من أبيه أن الهواء مُحَمَّل بجُزَيْئَاتٍ مُشِعَّةٍ تتساقط مع الثلج من الطبقات العُليا للغلافِ الجوّي حيث يَتَراكم الغبارُ والدخان، واستنشاق تلك الجُزَيْئَات بشكلٍ متواصل خطير للغاية، وهؤلاء المرضى تعرضوا للإشعاع بدرجاتٍ مختلفة؛ لذا يظل المرضى بالطابق الأول المعزول بشكل تام عن الطابق الثاني الذي يُقِيم فيه الأطباء مما يجعلهم يتحركون فيه بحرية دون الحاجة لأقْنِعَة الغاز، ولا يتعامل الأطباءُ مع المرضى إلا باستخدام إجراءات وِقَائِية خاصة تحميهم من انتقال المرض أو العَدْوَى إليهم.

اشتهرت المستشفى في المناطق المُحيطة بها بأنها حصنٌ وملاذٌ آمِنٌ، حيث الدفء والكهرباء والطعام، مما جعلها بالتالي مطمعًا للكثيرين، وقد أدرك قَاطِنِي المستشفى ذلك جيدًا، لذا كانت أسوارُ المستشفى كلها متوجةً بالأسلاكِ الشائِكة لمنع المتسللين، ولا تُفْتَح البوابة الحديدية الضخمة إلا من وقتٍ لآخر حين يأتي مريض جديد من الخارج، كما كان حرس المستشفى ـ أو من تَبَقَّى منهم ـ يقومون بجولات حول المستشفى، حيث يَضَعُون أقنعةَ الغازِ، ويحْمِلون الأسلحة، ويخرجون خائِضِيْن الظَلام والصقيع للبحث عن طعام، وفي بعض الأحيان، أو في معظمها، كانوا يعودون خاليي الوِفَاض.

اعتاد زيادُ وفريدة على الحياة الجديدة في المستشفى، رغم ذلك لم يختلطوا كثيرًا بقاطني المستشفى الآخرين، كانا منطويين، قَلَّمَا يُغَادران غرفةَ أبيهما؛ يقضي زياد معظم وقته يلعب بعض الألعاب على هاتفه أو يستمع إلى بعض الأغاني، أما فريدة فقد أحضر لها أبيها بعض الروايات الموجودة في المستشفى - بين أكوامِ الكُتب الطبية - فكانت تقضي وقتها في قراءة تلك الروايات، وقد قرأت كل واحدة منهم بعد ذلك أكثر من عشرِ مرات.

مرت الأيام مُتَشَابِهة حتى ظنا أن حياتهما قد استقرت ها هُنا ولن تتغير أبدًا، إلا أنه ذات مساء مُظْلِم كغيره، أثناء استغراق فريدة وزياد في النوم في حُجْرة أبيهما، المستغرق بدوره في أبحاثه ودراساته الطبية؛ ارتجَّت المستشفى على إثر انفجارٍ أيقظ زيادَ وفريدة فزعًا. سأل زياد أبيه:

- ما الأمر؟

عقد حاجبيه في توتر وقال:

- لا أعرف!

تجَمَّدت فريدة في سريرها من الخوف، أما زياد فاسْتَل مسدسه من أسفل وِسادته، وأمسكه بحذر وهو يُشاهد أبيه يقترب من نافذة الغرفة الزجاجية المُغلقة ويُطِلُ على ساحة البَهْو، أضاء الحُراسُ الكشَّافات الكبيرة، ورأى سيف الدين فجوةً في سور المستشفى صنعها الانفجار، ومجموعة من الرجال يقتحمون المستشفى، مُسلحين بالهراوات والأسلحة البيضاء وأسلحة نارية بدائية، ثم قال رجل يتوسطهم يُمْسِك بهراوة ضخمة بلهجةٍ آمِرَة:

- أحضروا كل ما تجدونه من طعامٍ وشرابٍ ووقودٍ!

تقدّم المُقْتَحِمُون نحو باب المستشفى الرئيسي، وظهر حرسُ المستشفى في أقنعة الغاز، يحملون أسلحةً نارية مُتَطَوِّرة، ولكن عددهم كان قليلًا للغاية مُقَارنةً بالمُقْتَحِمِين. استطاعت طلقاتُهم الأولى إرداء العديدِ من المُقْتَحِمِين قَتْلَى، ولكن رصاصات أسلحةِ المُقْتَحِمِين البدائية أسقطت العديدَ من الحُراس، كما ذُبِحَ العديدُ منهم بالأسلحةِ البيضاء. دعا سيفُ الدين الله في سَرِيْرَتِه بأن يَصْمُد الحرس، ولكن اليأس تسلل إلى نفسه عندما رأى مَنْ تَبَقَّى من حُراسِ المستشفى يستسلمون للمُقْتَحِمِين، وزعيمهم ضخم الجُثَّة يستولى على أسلحتهم، ثم تناهت إلى مَسَامِعِه أصواتُ المُقْتَحِمِين في الطابق السُفْلِي وهم يُقَلِّبون المستشفى رأسًا على عَقِب بحثًا عن الموارد التي سَمِعُوا بوجودها في المستشفى.

اتجه سيفُ الدين ناحية الباب، وتَبِعَهُ زيادُ ولكن أبيه قال له:

- انتظرني هنا، تولَّ حماية فريدة.

كان هناك العديد من الأشخاص خارج غُرَفهم، قال لهم سيفُ الدين بلهجةٍ آمرة:

- علينا تحصين الطابق الثاني.

في ظروف كتلك يستسلم الإنسان لأي صوتٍ آمر مُتَشَبِّثًا بأي بارقةِ أملٍ للنجاةِ، فبدون تردد أطاعه الجميع وهو يُوجِّهُهُم لحَمْل بعض قطع الأثاث الثقيلة ووضعها وراء الباب الوحيد المُؤدي للطابقِ الثاني لتحصينه، وأمسك كل واحدٍ منهم بما تصل إليه يده ليحمي نفسه، وحده زياد يمسك بسلاح، رغم أنه لا يعرف ماذا ستفعل طلقته الوحيدة أمام هذا الاعتداء. تناهت إلى مسامعهم صرخاتُ رعبٍ

تأتي من الطابقِ الأول، وأخذ الجميع يدعون الله أن يأخذ المُقْتَحِمُون ما يُريدون ويرحلون.

مرت دقائقٌ ثقيلةٌ بطيئةٌ، القلوبُ تَخْفِق بقوةٍ، والعرقُ يتكاثَفُ على الوجوه، الأعينُ مُعَلَّقةٌ بالباب في خوفٍ وتوتر، وفجأة تناهى إلى مسامعهم صوتُ خُطواتٍ عديدة ثقيلة تَرْتَقِي الدَرَجَ إلى الطابقِ الثاني، حاولوا فتح الباب ولكنه كان مُغلقًا، وسمِعوا أصواتَ المُقْتَحِمِين الفظةً وهم يتجادلون على الجانب الآخر، ثم بدأوا يُلْقُون أجسادَهم الضخمة على الباب، ولكن الباب صَمَدَ بفضل قِطَعِ الأثاثِ التي تَدْعَمُه، بعدها ساد الصمتُ مُجَدَّدًا، نظروا لبعضهم البعض، وقد بدأ الأملُ يتسلل إلى قلوبهم، وفجأة سمعوا ضجةً غريبةً، تلاها صوتُ فحيحٍ غريبٍ لم يعرفوا مصدره، ولكن سيف الدين صاحَ بِهم على الفور:

- تراجعوا بسرعة!

وما أن أنهى كلمته - وهو يتراجع للوراء - حتى دوى انفجارٌ قوي انتزع البابَ وقطع الأثاث من مواضعهم، وتناثرت الشظايا في كل مكان، مُخترقة أجسادَ بعض من كانوا قريبين من الباب فسقطوا مُضْجَرِين في دِمائِهم. شاهد زيادُ المشهدَ المُرعب وهو يختلسُ النظرَ من غرفته، ومن بين الغبار والدخان ظهر مجموعة من الرجال ضخام الجُثَّة يقتحمون المكان، يتقدمهم زعيمُهم مُمْسِكًا بهراوته المُلطخة بالدماء وهو يقول ساخرًا:

- لِحُسنِ الحظ أننا أحضرنا معنا مُفَجِّرات إضافية.

أدرك زيادُ في تلك اللحظة أن هناك دماء تسيل من صدر أبيه موضع اختراق إحدى

الشظايا الخشبية، وقد لوَّثت الدماءُ مِعْطَفَه الأبيض، ثم سمعه يقول مُحاولًا الحفاظ على رَبَاطَةِ جَأْشِه:

- خُذْ ما تريد من طعام وشراب، ولكن أرجوك دعنا نُسْعِف جَرْحَانا أولًا.

اقترب الرجلُ الضخم منه وابتسامة شرسة تعلو وجهه ثم قال:

- لن يتحرك أحدٌ من موضعه حتى نُغَادر المكان، سيكون من حسن حظكم إن تركناكم على قيد الحياة.

صمت سيفُ الدين كي لا يُثِير غضبَ الرجلِ، فاقترب رامي من سيف الدين وهو يقول:

- سيدي أنت تحتاج لإسعافٍ عاجل.

رَكَلَ الرجلُ الضخم رامي بحذائه الثقيل، فسقط أرضًا يتلوى في ألمٍ والرجل يقول:

- قلت لن يتحرك أحدٌ من موضعه، هل أنت أصم؟

ثم أشار لرجاله آمرًا:

- فَتِّشُوا هذا الطابق جيدًا وخُذوا كل ما تَعْثُرون عليه.

عقد سيف الدين حاجبيه وهو يشاهد المُقْتَحِمِين يتفرقون في المكان، ونظر بِطَرْفِ عينه ناحية حُجرته، ولمح زيادُ يختلسُ النظرَ، فأشار له خِفْيَة بأن يتراجع، ثم أخذ ينظر إلى المصابين بالشظايا يتألمون وقال هامسًا:

- اصمُدوا قليلًا فقط.

تراجع زيادُ إلى داخل الغرفة، ووضع مسدسه في حِزامه فلا فائدة له في ظل وجود

هذا العدد، وأحاط فريدة ـ الخائفة المرتجفة ـ بذراعيه وهو يقول:

- لا بأس، سيكون كل شيء على ما يرام.

لم يعرف إن كان يريد طمأنتها أم طمأنة نفسه، ظل كليهما منكمشين على بعضهما وصوت خُطوات ثقيلة تقترب من الغُرفة، وفجأة اقتحم رجلان الغرفة، ولمّا رأياهما قال أحدهما للآخر:

- أنظر ماذا لدينا هنا.

اقترب الرجلان من زياد وفريدة، الذي فرد يداه وهو يقف أمام أخته؛ محاولًا حجبهما عنها وقال:

- دعانا وشأننا!

نظر الرجلان لبعضهما البعض ثم قهقها في سخريةٍ، وأمسك أحدهما بزياد، بينما جذب الآخر فريدة التي صرخت في هلعٍ فقال زياد بغضب:

- ابعد يدك القذرة عنها!

ولكن الرجل تجاهله وقال لزميله:

- فلنرَ ماذا يقول الزعيم بشأنهما.

عندما شاهد سيفُ الدين الرجلين يخرجان بصحبة زياد وفريدة ركض من مَوْضِعه وهو يصرخ:

- لا !!!!

ضربه أحدُ الرجالِ في قدمه بماسورةٍ حديدية غليظة أسقطته أرضًا، ولكنه تَحامَلَ

على نفسه ليعتدل مُجددًا، فأمسك به أحدهم ليقيد حركته، وقال الرجل المُمْسِك بفريدة:

- أنظر ماذا وجدنا يا زعيم!

التمعت عينا الزعيم بشراسةٍ قائلًا بطريقته الفَظَّة:

- ما الذي تفعله فتاة جميلة في هذا المكان؟

رأى سيف الدين الرعب المُرتسم على وجه ابنته فصاح مُحذرًا:

- اتركها وشأنها أيها الوغد!

تجاهله الزعيم الضخم وهو يقترب من فريدة ويضع يده الخشنة على خدها قائلًا:

- بل ستأتي هذه الفتاة معنا.

نظر رجاله لبعضهم البعض نظرةً خبيثةً، ففهم سيف الدين ما الذي يعنونه، وارتسم اليأسُ والقهرُ على وجهه، فأمسك الزعيم بِعَضُد زياد ورماه ناحية أبيه قائلًا بسخرية:

- يمكنك الاحتفاظ بالفتى، لا نُريده؛ قِسْمَةٌ عادلة أليس كذلك؟

ولكن سيف الدين لم يكن منتبهًا لما يقول، فقد تعلقت عيناه بالانتفاخ الملحوظ في جانب زياد، وأدرك على الفور ما يعنيه ذلك؛ فمد يده بحرص لتلتف أصابعه حول مِقْبَض المُسدس. أحسَّ زياد بما يفعله أبيه فنظر إليه ورآه يوجه كلامه للزعيم قائلًا:

- أنت أتيت من أجل الطعام والشراب، فلتدع ابنتي وشأنها، خذ ما أتيت من أجله وارحل!

قال الزعيم:

- آه، ابنتك، فهمت.

ثم اقترب منه وقال:

- الحياة ليست طعام وشراب فقط أنت تعرف ...

كان على وشك أن يُكْمِلَ حديثه، عندما قفز سيف الدين ناحيته، ووضع المسدس على صِدْغِه صائِحًا:

- حركة واحدة وسأُفَجِّر رأسك!

قال الزعيم بجمودٍ دون أن تهتز له شعره:

- وماذا بعد أن تقتلني؟ سيُمَزِّقك رجالي إربًا.

قال سيف الدين:

- رجلٌ مثلك أعرف أنه سيُثَمِّن حياته فوق كل شيء، عليك أن تأمر رجالك بالرحيل وبعدها سأتركك تتبعهم.

توترت أيدي الرجال الممسكين بالأسلحة البيضاء، فيما وَجَّه الرجالُ المُمْسكين بالأسلحة النارية فوهاتَهم ناحية سيف الدين، فصاح بهم:

- اخفضوا أسلحتكم وإلا فجرت رأس زعيمكم!

لم يُخْفِض أحدهم سلاحه، وراحت أعيُنُهم تتنقل بين سيف الدين والزعيم في توترٍ، فقال لهم الأخير:

- اخفضوا أسلحتكم.

أطاعه رجاله فأحسَّ بالارتياح، ولكن الزعيم قبض على يد سيف الدين الممسكة بالمسدس بحركة حادة، وأدارها بقوة فانكسرت فصرخ في ألم، وأمسك الزعيم بالمسدس ووجهه ناحية سيف الدين وقال:

- حكمت على نفسك بالإعدام!

أحسَّت فريدة بالأرض تميد أسفل قدميها وقد اتسعت عيناها في رعب، بينما صاح زياد في ألم:

- أبـــــي!

أحَسَّ أن الزمن يتحرك ببطء وهو يشاهد إصبع الزعيم يضغط زناد المسدس، والرصاصة تخرج من فوهته مخترقة الهواء لتستقر في رأس سيف الدين، والدماء تتناثر منها، ثم أظلمت الدنيا أمام عينيه، وهو يسقط فاقدًا الوعي، أسفل أقدام أعدائه.

الفصل السادس

أحسَّ زيادُ بنفسه يسقط في ظُلْمَةٍ لا مُتَنَاهية، وبشكلٍ غريب وجد نفسه مُسْتَسْلِمًا لهذا السقوط، لم يَعُد يَكْتَرِث لِمَا سيحدث له، لقد نال كِفايته من هذا العالم، وآن له أن يستريح، وفجأة من قلب الظُلمة أتاهُ صِراخٌ مألوفٌ، فريدة تصرخُ في رعبٍ، وأدرك في تلك اللحظة أن هناك من هو بحاجة إليه، بحاجة لوجوده في هذا العالم، وكأنه بفعلِ السحرِ توقف سُقُوطه المُفَاجِئ في قلبِ الظُلمة.

في تلك اللحظة استعاد وعْيَه وهو يشعر بألمٍ حادٍ في رأسه، ففتح عينيه بِبُطء وهو ينظر حوله فوجد نفسه راقدًا على السرير في غُرفة أبيه، إلا أن كل شيء غارقٌ في الظلمة، لقد انطفأت أنوار المستشفى، ماذا حدث؟ وفجأة عاد لذاكرته المشاهدُ الأخيرةُ قبل فقدانه الوعي كموجةٍ لطمت عَقْلَه، فصرخ:

- أبـــي!!

تردد صدى صرخته في الظُلمة وظهر على إثْرِها رامي يُمْسِك في يده شمعةً تُضيء ظلالًا أكثر منها ضوءً، فكَّر زياد هل هو من وَضَعَه في السرير؟ ولكنه نَحَّى هذا السؤال جانبًا، وهو يقول في لهفة:

- فريدة، أختي، أين هي؟

فقال رامي في ألم:

- لقد أخذوها!

اتسعت عينا زياد في ذُعرٍ، فأطرق رامي رأسه في أسف، لا يجد ما يقوله لِمُواسَاتِه، فسأل زياد وهو ينهض من السرير:

- أين جُثَّة أبي؟

أجابه رامي منكسرًا:

- بالحجرة المُجَاوِرة.

فقال له زياد:

- من فضلك أريد دفنه بشكلٍ لائِق.

أومأ له رامي برأسه، واستدار مُغَادِرًا الغرفة يَتْبَعه زياد، مازال الدخان يتصاعد من مَوْضِع الانفجار، كما كان هناك أثر دماء على الأرض، تَذَكَّر اللحظةَ الأخيرة في حياة أبيه فانْقَبَضَ صدرُه في ألمٍ.

وقف زياد يُتَابع مراسمَ دفنِ أبيه والضحايا الآخرين لهذا الاعتداء، ورآهم يَهِيلُون التُراب على جُثَمَانِه في حفرةٍ بساحةِ المستشفى الخلفية. تَنَامَت في أعماقه كراهيةٌ

[illegible] هؤلاء المُقتَحِمين، تمنَّى لو يستطيع قتل كل واحدٍ منهم ثأرًا لقتل أبيه، بل لا يكفي الموتُ وحده! أراد أن يجعلهم يتألمون قبل أن يُلقُون حَتْفَهم على يديه. رأى [illegible] كلَّ ذلك مُرْتَسِمًا على ملامحه، فربَتَ على كتفيه؛ يريد أن يُهوِّن عليه، ولكن الكلمات اختنقت في حَلْقِه، وبعد دقائق من الصمت قال زياد:

- أريد سلاحًا، كما أحتاج لزجاجة مَلِيئَة بالوقود.

عقد الطبيب حاجبيه وقال:

- لم يترك هؤلاء الأوغادُ أيَ سلاحٍ بالمستشفى، كما أخذوا كل الوَقُود، لم يتركوا حتى ما يكفي لتشغيل مُوَلِد الكهرباء!

زفر زيادُ ثم قال:

- حسنًا، هل هناك سكين صغيرة أو مدية؟

قال له الطبيب:

- المدية أمرها سهل!

وهكذا أعطاه الطبيب مدية يَدٍ صغيرة من النوع الذي يخرج نَصْلَهُ بضغطة زِرٍ، صغيرة بما يكفي ليضعها في جيبه، فقال له الطبيب:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

أجابه زياد بتصميم:

- يجب عليّ أن أنقذ أختي من بين أيدي هؤلاء الأوغاد.

أيقن رامي أنه لا يستطيع منعه من مغادرة المستشفى، كل ما يستطيع فعله هو أن يقدم له كل مساعدة ممكنة، فقال له:

- ستحتاج لهذين!

كان يمسك في كلتا يديه بقناعيّ غاز، فأحسَّ زياد بامتنانٍ، وقال للطبيب:

- لا أعرف كيف أشكرك.

أطرق الطبيبُ قائلًا:

- لا داعي للشكر، هذا لا يُقارن بكل ما قدمه أبوك لنا، لقد وقف في وجه الخطر بشجاعة ...

لم يَقْدِر على إكمال الجملة، فأمسك زياد بقِنَاعَيِّ الغاز ليرتدي أحدهما ويضع الآخر في الحقيبة، كما أعطاه الطبيبُ بعضَ المُرشحات الإضافية، ثم أحْكَمَ إغلاقَ حقيبته ووضعها على ظهره ثم توجه ناحية الدَرْجِ المُؤَدِى إلى الطابقِ الأرضي والذي كان أسوء حالًا، كل هؤلاء المرضي ماذا سَيَحِل بهم؟ سار بخُطوات مُسرعة كأنه يَهْرُب من تلك المَأْسَاة، أو كأنها عندما تغيب عن ناظريه ستكون كما لو لم تكن!

كانت الفجوة التي أحدثها الانفجارُ ما تزال في موضِعِها بسور المستشفى، فَعَبَرَها خارجًا في الظلمة مُجَدَّدًا، وأمسك بكشَّافه ليُنِير له الطريق، كانت هناك آثار عديدة على الأرض مَوْضِع سَيْرِ المُقْتَحِمين، ولكن زياد لم يَتَتَبَّعَها بل توجه نحو مَوْضِع سيارته الذي تذكره بصعوبة، كانت مدفونة أسفلَ كَوْمَةٍ من الثلج، وبذل جهدًا كبيرًا في استخراجها، ثم فتح حقيبةَ السيارة وأخرج منها جالونَ الوقود الاحتياطي الذي وضعه بها، وكانت هناك زجاجة فارغة في الحقيبة، أخذ يملأها

بالوقود وهو يحمد الله أن درجة تجمد الوقود تصل إلى ستين درجة تحت الصفر وإلا تَحَوَّل الجالونُ لكتلةٍ من الثلج! بعدما ملأ الزجاجة، أحْكَمَ إغلاقَها ووضعها في الحقيبة بحرص، وكذلك عَثَرَ على حبلٍ فوضعه في الحقيبة، ثم عاد أدْرَاجَه ناحية المستشفى، وبدأ يتعقب آثارَ المُقْتَحِمين.

لم يكن تَعَقُّبُ آثارَ أقدامِ المُجرمين سهلًا في ظل الهُطولِ المتواصلِ للثلجِ، ولكن عددًا كبيرًا كهذا من الصعب أن تختفي آثاره بالكامل، وهكذا استمر زياد في تَعَقُّبِ آثار الأقدام مُقتربًا من مَقَرِ العصابة، مُحَاذرًا في الوقت ذاته أن يكتشف أحدٌ وجوده، حتى لمح في الأفق، مكانًا مُضيئًا، كانت مدرسة صغيرة من ثلاثة طَوَابِق اتخذها المُجرمون مقرًا لهم، وقد أحاط عددٌ منهم بأسوار المدرسة، فهم يعرفون أن ما فعلوه بالمستشفى قد يفعله آخرون معهم.

على مسافاتٍ مُتَبَاعِدة كانت هناك بعض البراميل التي مُلِئت بالحطب وتتصاعد منها أَلْسِنَةُ اللَّهَب والدُخان يتحلَّق حولها عددٌ من الرجال، بينما يتحرك بعضهم الآخر، في غدوٍ ورَوَاحٍ، أمامَ الأسوار. خَمَّن أن فريدة بالداخل، ولكن عليه أن يتأكد من ذلك أولًا، لا يجب أن يقوم بأي حركةٍ قبل أن يَدْرِسَها جيدًا، لكيلا يُعَرِّض حياتَه وحياة أخته للخطر.

اختبأ وراء مبنى صغير على مَقْرُبةٍ من المدرسة، وظل مُتَرَبِّصًا في مَوْضِعه يَدْرسُ حركةَ المُجرمين، يَتَحَيَّنَ فُرصةً للانفرادِ بأحدِهم، مَرَّ الوقتُ طويلًا حتى كادت أوصاله أن تتجمد من البرد، ولكنه لم يتحرك من مَوضِعه قَيْدَ أَنْمُلة كي لا يكتشف أحدٌ وجودَه، حتى سَمِعَ أَحَدَهم يقولُ لزميله:

- سأذهب لأقضي حاجتي.

فلَوَّح له زميله بلا اكتراث، أما زياد فقد تسلل وراءه بِحَذَرٍ، تاركًا مسافةً آمنةً بينه وبين الرجل، حتى رآه يتوارى وراء إحدى الأشجار المُغَطَّاة فروعها بالثلج، فتَلَفَّت زيادٌ حوله سريعًا حتى عَثَرَ على صخرةٍ، فأمسك بها واقترب من الرجل دون أن يَشْعُرَ به، ثم هوى على رأسه بالصخرة بكل قوته، فسقط الرجل أرضًا دون أن يَنْبُس بِبِنْتِ شفة. خشي زياد أن يكون قد قتله ولكن قلبه كان ينبض، فتنهد بارتياح، ثم جذب الرجل من قدميه مُبتعدًا عن المدرسة، والهواء المُحَمَّل بالثلج يصفر من حوله، وأطرافه تكاد تتجمد، حتى ابتعد بما يكفي، فأخرج الحبل من حقيبته وقيد الرجل إلى أحد الأشجار، ثم صفعه على وجهه حتى استيقظ، فصاح الرجل:

- ماذا ...

قاطعه زياد بشراسة سائلًا بصوته العميق القادم من وراءِ قناعِ الغاز:

- أين الفتاة؟

حاول الرجل أن يَتَبَيَّن ملامحَ زياد في الظُلمة ولكنه لم يستطع بسبب ارتدائه للقناع، فقال ببلاهة:

- أي فتاة؟

أخرج زياد مديَّته من جيبه مُبرزًا نَصْلَها الحاد اللامع، ليضعها مُهددًا على رقبته وهو يقول له في نفاد صبر:

- فتاة في السابعة عشر، أخذها زعيمُكم القَذِر بعد هجومه على المستشفى، أين هي؟

نظر الرجل إلى النصلِ برعبٍ وقال:

- أرجوك، لا أعرف شيئًا، عمَّ تتحدث؟

أبعَد زياد النصلَ عن رقبة الرجل ثم غرس المدية حتى مقبضها في فخذه وهو يكتم صرخاته بيده الأخرى ويقول:

- نحن بعيدون عن أصدقائك ولن يسمعك أحدٌ تصرخ، إن أردت أن ينتهي هذا الألم فلتخبرني أين هي؟

أصدر الرجلُ هَمْهَمَاتًا غير مفهومة فأبعد زيادُ يده عن فمه فقال وهو يَجُزُّ على أسنانه في ألم:

- نعم، نعم، تذكرت.

فقال له زياد دون أن ينتزع المدية من فخذه:

- جيد، والآن أخبرني بكل شيء.

صمت الرجلُ بضعة لحظاتٍ وهو يَلْهَثُ من الألم ثم قال:

- إنها مع الزعيم في الطابق الثالث من المدرسة، لا أعرف أكثر من ذلك!

قال له زياد:

- وأي غُرفةٍ في الطابق الثالث هي غرفة زعيمك؟

تردد الرجل قليلًا، فأدار زياد المدية بشكلٍ جعل الألمَ في فخذِ الرجل يتحول لنارٍ مُتَّقِدة فقال:

- في الغرفة الرابعة، والفتاة في غرفةٍ صغيرةٍ بنفس الطابق، لا أعرف أكثر من هذا، أُقْسِم لك.

فقال زياد:

- إذن لم أعد بحاجة إليك!

ثم انتزع المدية من فخذِ الرجل ليغرسها في عُنُقِه بضربةٍ حادة فجحظت عيناه في ألم، ثم تركه زياد يلفظ أنفاسه الأخيرة، ليعود أدراجه ناحية المدرسة، وهو يضع خُطتَه لإنقاذ أخته.

دار زيادُ حول السورِ عِدة دوراتٍ مُستترًا بالظُلمة مُحاولًا إيجادُ ثَغْرَةٍ يتسللُ منها، وفي ظِلِ وجود عددٍ من الرجال المُسَلَّحين أمام بابيّ المدرسة الأمامي والخلفي، لم يكن أمامه سوى تَسَلُق السور، وهو أمرٌ بالغ الخطورة بفعل الظلام والثلج، ولكن ما باليَدِ حيلة. عَثَرَ أثناء دورانه حول السور على مجموعةٍ من الصناديقِ المُلقَاة بإهمالٍ على أحدِ الجوانب، خَمَّن زيادُ أن المُجرمين قد سرقوا تلك الصناديق من مكانٍ ما وأفْرَغُوها من مُحتوياتها. تَلَفَّت حوله عِدة مرات ليتأكد من عدم وجود أحد بالقرب منه، ثم بدأ- بأقل صوت ممكن- يَرُص الصناديقَ فوق بعضها البعض؛ كي يصنع لنفسه سُلَّمًا بِدائِيًا ليصل إلى قمةِ السور. وهكذا صعد فوق الصناديق ومدَّ يَدَه لإمساك طرفِ السورِ الذي كان باردًا للغاية رغم ارتدائه لقُفَّازٍ صُوفِي سَمِيك، وأحسَّ بألم شديد في أصابعه، ولكنه تحامل على ألمه وجذب نفسه لِقِمَّتَه، ثم اختلس النظر إلى الناحية الأخرى ليتأكد من خلو المكان، ولكنه لم يَرَ شيئًا في الضُوءِ الخافتِ، فقفز إلى الداخل قفزةً، ارتَطَمَ على إثْرِها بالأرض، ورغم أن الثلج المُكَوَّم قد امتص جزءً من الصدمة، الا أن السقطة آلمته وأحس بعظامه

لثوان، ثم سَمِعَ صوتًا خَشِنًا يقول:

- هل سمعت هذا؟

وصوتًا آخر يقول:

- ما الأمر؟

أجابه الصوتُ الأول:

- أعتقد أنني سمعت صوتًا ما!

تسارعت نبضاتُ قلب زياد، وهو يتراجع بحذرٍ في الظلام، ورجلان يُمْسِكُ كلُ واحدٍ مِنهُما بكشَّافٍ كهربي يقتربان من موضع سقوطه، فاختبأ وراء كَوْمَةٍ من الخُرْدَة في أحد الأركان وهو يكتم أنفاسه بقدر المُستطاع. مَرَّ الرجلان بجانبه دون أن يشعرا به، وقال أحدهما:

- يبدو أنها مُخيِّلَتِك، لا يوجد شيء.

فقال الآخر بشك:

- رُبَّمَا!

وهكذا عادا أدراجَهما، فتنفس زيادُ الصَعْدَاء، وبدأ يدرس المكان من حوله، كانت أمامه تلك المساحة الواسعة الفارغة التي يُطْلَقُ عليها اسم "حوش المدرسة" وعلى الناحية الأخرى المبنى الوحيد بالمدرسة المُكَوَّن من ثلاثة طوابق، كان هناك رجلًا على سطح المبني يُضِيء الحوش بكشَّافٍ كبير، يُحَركه من طرفٍ لآخر؛ لِمراقبة المكان. راقب زياد حركة الكشَّاف بحذر حتى ابتعد إلى الطرف الآخر ثم تحرك

بِخِفةٍ؛ ليَتَسَلَّل مُسْتَتِرًا بالظُلمة، ويدور من جانب المبنى ويُصبح في ظهره.

توقف زيادُ قليلًا مُلْصِقًا ظهره بجدار المبنى؛ كي يلتقط أنفاسه، ويستجمع أعصابه، فكان يشعرُ بتوترٍ كبيرٍ مع كل حركة. وفجأة أحسَّ بحركةٍ، ولمح من الطرف الآخر رجلًا يقترب، مُمْسِكًا بكشَّافٍ يدويٍ صغيرٍ، يُصْدِر ضوءً أصفرًا شاحِبًا. لم يَبْدُ عليه أنه قد أحسَّ بوجوده، وإنما يَمُرُ في دوريةٍ تفتيشٍ روتينيةٍ رُبَّما. لولا الظُلمة الكثيفة القاتمة لرأى الرجلُ زيادًا، ولكن الضوءُ الباهتُ لم يكن كافيًا لِيُرِى أبعد من أنفه، ولكن عاجلًا أو آجلًا سيقترب منه وسيراه. أخذ عقلُ زياد يعمل بسرعةٍ كبيرةٍ، مُحاوِلًا إيجاد حلٍ للخروج من هذا المأزق. وعلى الفور أطلق عقلة الإشارات العصبية إلى أطرافه فتحركت على الفور مُلَبِّيةً، ووجد نفسه ينحني أرضًا مُفَتِّشًا بين الثلجِ الكثيفِ حتى عثرت أصابِعَهُ على حجرٍ، قَبَضَ عليه واعتدل واقفًا، وألقاه بكل قوته لِيُحَلِّق في الهواءِ ويستقر أرضًا مُصْدِرًا صوتًا مكتومًا وسط الثلجِ، ولكنه كان كافيًا ليتناهى إلى مسامعِ الرجل، فالتفت للوراء بحدةٍ باحثًا عن مصدر الصوت بكشَّافِه. أصدر عقلُ زيادٍ الإشاراتَ لقدميه، كي يتحرك بسرعةٍ وخفةٍ ويَنْقَضُ كالفهدِ على الرجلِ، ويغرس المدية في عُنُقِه وهو يكتم أنفاسه باليد الأخرى والرجل ينتفض حتى فارق الحياة والدماء تسيل من جسده لتلوث الثلج.

لم يُضَيِّع زيادُ المزيد من الوقت في التفكير بل أخذ يفحصُ مبنى المدرسةِ؛ بحثًا عن وسيلةٍ للوصول إلى غرفة الزعيم، قبل أن ينتبه الرجال لمقتل أحدهم. كانت هُناك مواسير مُمتدة بطولِ المبنى تذهب إلى طوابقٍ مُختلفة، خَمَّن زيادُ أنها مواسير مياه أو مجاري، يمكنه تَسَلُّقَها للوصول إلى الطابق الثالث. أخذ يحسب الحُجُرات ـ التي كانت في الماضي فصول ـ حتى يعرف أيهم غرفة الزعيم، وما أَنْ حَدَّدَ مَوْضِعَها

حتى بدأ يتسلق، كانت المواسير الحديدية باردة للغاية حتى شعر كأن إبرًا رفيعة أو قطعًا زجاجية حادة تُوْخِزُ يديه، ولكن إحساسه بأنه قريب من أخته جعله يتَشَبَّثُ بالمواسير مُتَجَاهِلًا هذا الألم، كان يَتَلَفَّت برأسه ليتأكد أن أحدًا لا يراه وهو يتسلق، ولكن تلك الظُلمة كانت سِتارًا له.

وصل إلى الحجرةِ الرابعة من الطابقِ الثالث، فاسْتَرَقَّ النظرَ ليرى الزعيمَ - على ضُوءِ المصابيح الزيتية - جالسًا أمام مِنْضَدَةٍ خشبية وهو يأكل - بنهمٍ وشراهة - طعامًا موضوعًا أمامه، فظل مُتَعَلِّقًا في مَوْضِعه، وذراعيه يؤلمانه للغاية. مضى بعضُ الوقتِ حتى انتهى الزعيمُ من طعامه، ثم نادى على أحد رجاله ليحمل بقايا الطعام وقال له:

- أحضر لي الفتاة!

تحفَّز زيادُ حينما سمع الزعيم يقول ذلك، وأرْهَف حواسه وهو يُشَاهِدُ من مَخْبَئِه الرجل يحمل بقايا الطعام ويُسرع لِيُنَفِذ أوامرَ زعيمه، ثم مسح الأخير فمه في كم ملابسه، وهو يتناول مشروبٍ ما من زُجاجة موضوعة أمامه. مَضَت الدقائقُ ثقيلةً وزياد مُعَلَّقٌ في الظلام والرياح الباردة تَرْتَطِمُ بجسده، ناظرًا من آنٍ لآخر لأسفل حتى يتأكد أن أحدًا لم يعثر بعد على جثة الرجل المذبوح. وبعد بضعة دقائق عاد الرجلُ الذي أرسله الزعيم مُمْسِكًا بفريدة الخائفة المذعورة ثم تركها وحدها مع الزعيم وتراجع لِيُغْلِق البابَ عليهما. انتفضت ملامحُ فريدة في خوفٍ وهي ترى نفسها وحدها مع الزعيم الضخم المخيف، بدأ يقترب منها فقالت له بصوت مُرتَجِف:

- أُحَذِّرك أن تَمَسَّني بِسُوءٍ، لن يُسَامِحَك أخي زياد!

ضَحِك الزعيمُ وقال بصوته الأَجَش:

- إذن هذا الفأر الصغير اسمه زياد، لا شك أنه الآن في المستشفى يبكي بجوار جثة أبيه.

أحسَّ زياد بغضبٍ شديدٍ يتدفق في عروقه وهو يستمع لتلك الكلمات، وأخذ عقله يعمل بسرعة مُفكِّرًا كيف يتسلل دون أن يراه الزعيم، رَكَضَت فريدة في تلك اللحظة ناحية الباب، ولكن الزعيم رَكَضَ ورائها وأوْصَد الباب بالمِزْلَاج، ثم احتضنها وهو يقول:

- لن تهربي مني!

أخذت فريدة تصرخ محاولةً إبعادهَ عنها، فاسْتَغَلَ زيادُ تَشَتُّتَ انتباهِ الزعيمِ المُؤَقَّت ليقفز داخل الغرفة، لَمَحَته فريدةٌ فانتفض قلبها، فرغم ارتداءه لقناع الغاز؛ إلا أنه استطاعت التعرف عليه من ملابسه. خشي زياد أن ينتبه الزعيم لِتَغَيُّر نظراتها ويعرف بوجوده، ولكنه كان مشغولًا بمحاولة احتضان فريدة؛ لمح زياد هراوة الزعيم الضخمة بجانب سريره الموضوع بالغرفة، فأمسك بها بكلتا يديه واقترب منه، ثم رفعها في الهواء وهوى بها بكل قوته على رأس الزعيم، الذي اتسعت عيناه في ذهول، ثم سقط فاقدًا الوعي.

ألقت فريدة نفسها في حضن زياد وانخرطت في بكاءٍ شديد، وقالت من بين دموعها بصوتٍ متقطع:

- كنت .. أعرف .. أنك .. ستأتي .. من أجلي!

ربتَ زياد على كتفيها ومسح على شعرها وقال بحنان:

- بالطبع أتيت من أجلك، فأنتِ من تَبَقَّى لي في هذه الدنيا.

نظرت فريدة إلى جسد الزعيم المُلْقَى أرضًا ثم بَصَقَت في غضب، والتفتت لأخيها وقالت:

- علينا الهرب قبل أن يستعيد وعيه، أو يشعر رجاله بوجودنا.

قال لها زياد باستنكار:

- هل تتوقعي أن أغادر دون أن أجعل هذا الوغد يدفع ثمن ما فعله بأبي وبكِ؟

فقالت له بحيرة:

- ماذا ستفعل إذن؟ ستقتله؟

برقت عينا زياد ببريقٍ غريب لم تلمحه فيهما من قبل وقال:

- قتله وحده لن يشفي غليلي!

ورغمًا عنها أحست فريدة برعشة باردة من كلمات أخيها.

الفصل السابع

مَزَّقَ زيادُ الفِراشَ إلى أشرطة، وربطها ببعضها البعض جيدًا؛ ليصنع حبلًا طويلًا متينًا، وبعد ذلك ربطه بإحكامٍ فى النافذة، ثم أشار لأخته أن تبدأ بالهبوط، انْتَفَضَ قلبها خوفًا وهي تُحَدِّق عَبْرَ النافذة إلى الظَلمة الكثيفة مُحاولة أن تَلْمَح الأرضَ ولكنها أحسَّت كأنها تُحَدِّق إلى هاويةٍ بلا نهايةٍ، وفجأة سمعا صوتَ طرقاتٍ على البابِ، وصوت أحد الرجالِ يقول:

- هل كل شيءٍ على ما يُرَام يا زعيم؟

قال لها زياد هامِسًا:

- لا يوجد وقت لإضاعته، هيا!

أمسكت فريدةُ بالحبلِ وبدأت تَهْبِطُ بِحرصٍ واضعةً قدميها على جانبِ المَبْنَى، بينما ظل زياد في موضعه كيلا يُزِيد الحِمْلَ على الحبلِ، بدأ الرجلُ يطرقُ البابَ بقوةٍ، ويبدو أن طرقاته قد جذبت آخرين، فقد تزايدت الطرقاتُ على البابِ المُغْلَق من الداخل بالمِزلاج، بعدها بدأ الرجال يُلْقُون بِثِقَلِهم على الباب، هل جذبهم الصوت، أم الرائحة؟ تساءل زياد وهو يبحث عن وسيلة للدفاع عن نفسه، وفجأة

على ضوء المشاعل رأى مُسدسًا، المسدس الذي قَتَلَ به الزعيمُ أبيه، مَوْضُوْعًا على مِنْضَدةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ، فأسرع لإمساكه، وفتَّش خِزَانَتَه فوجد بها عِدَّة رصاصات، لقد ملأ الوغدُ الخِزانة بعد استيلائه عليه! وَجَّه فوهةَ المُسدسِ ناحيةَ البابِ مُسْتَعِدًا للدفاع عن نفسه حال اختراقهم الباب، وفجأة أحسَّ بحركةٍ اهتزازيةٍ شديدةٍ في الحبل، فأدرك أن فريدة قد وصلت إلى الأرض وأرسلت الإشارة المتفق عليها، فوضع المسدس في حِزامه وأمْسَك الحبل بيديه وبدأ يهبط بسرعةٍ كبيرةٍ حتى وصل إلى الأرض وانضم إلى فريدة وصوت صياح الرجال بالطابق الثالث يتناهى إلى مسامعه:

- لقد قتلوا الزعيم! ابحثوا عنهم! لا تدعوهم يَهْرُبُون!

أمسك زيادُ بيدِ فريدة وساعدها كي تقف على كتِفيه لتصل إلى طرف السور، فجذبت نفسها لأعلى حتى أصبحت واقفة على قِمةِ السور، ثم انحنت وهي تمُد يدها إلى أخيها، الذي تراجع للوراء بِضْعَة خُطوات، ثم ركض للأمام وقَفَزَ صاعِدًا بضعة خُطوات على جانب السور قبل أن يُمْسِك بيد أخته المَمْدُوْدَة له، فأحسَّت فريدة بألمٍ شديدٍ في كَتِفِها ولكنها لم تَتَخَلَّ عن أخيها فأمْسَكَت يَدَه بِكِلتَا يديها وجَذَبَتْه بِكُلِ قوتها حتى أصبح واقفًا بجانبها على قمة السور. بعد أن التقطا أنفاسَهُمَا لبضعة لحظات قَفَزَ زيادُ إلى الناحية الأُخرى، ومَدَّ يداه أمامه ليلتقط أخته التي قفزت بِدَوْرِها، وما أن أصبح كلاهما على الجانب الآخر، حتى أمسك زيادُ بيدها وهو يَرْكُضُ ناحية مَوْضِع السيارة.

خرج الرجالُ في أعقابِهما كالذئابِ المَسْعُورة، يُفَتِّشُون المنطقة المحيطة بالمدرسة وهم يُمْسِكون بالكشَّافات الكهربية والمَشَاعِل، تَشَبَّث زيادُ بيدِ أخته، وأمسك

مُسدسه في اليدِ الأخرى، وفجأة سقط عليهما ضوءٌ كشافٍ، وأحد الرجال يقول:

- عَثَرْتُ عليهما.

فصَوّب زياد مسدسه ناحية الضوء وأطلق النارَ، فسمع الرجلَ يسقط أرضًا ويتأوه، لم يعرف هل أصابه في مَقْتَل أم لا، ولكنه لن يستطيع متابعة المطاردة بالتأكيد. جذب صوت الرصاصة الآخرين، فظهر ضوء الكشافات من جديد، فأطلق زياد رصاصتين باتجاه الضوء، وسمع صِراخًا وتَألُّمًا، فتردد بقية الرجال لمَّا أدركوا أنه مُسَلح، في تلك اللحظة كان زياد قد وصل للسيارة، ففتح باب السيارة الجانبي لأخته، ثم قفز أمام مقود السيارة وأدار المفتاح وهو يدعو الله أن يعمل المحرك. بعد عدة محاولات أصدر المحرك أصوات حشرجةٍ مُتكررة، ثم دارت السيارةُ أخيرًا، وتحرك بها زياد مُبْتَعِدًا عن المدرسة بأقصى سرعة يستطيع السير بها في الثلج، مُتَجَاهِلًا الأصواتَ المُحْتَجَّة التي يُصْدِرها المُحركُ بعد تركه في الثلج هذه الفترة الطويلة.

ابتعدت السيارة كثيرًا عن المدرسة، واختفى ضوءُ المصابيح والمَشَاعِل، فتأكد زيادُ أنهما قد تخلصوا من مُلاحقة المُجْرِمين، تَنَهَّدَ في ارتياحٍ وهو يَسْتَرْخِي في مَقْعَدِه، أما فريدة فكانت صامتة تُحَمْلِقُ نحو المجهول، عادت بذاكرتها إلى هذا المشهد المُخِيف وهي ترى أخيها يُقَيِّد الزعيمَ - فاقد الوعي - ثم يقوم بحشو فَمِه بقطعةِ قماش سميكة، لم يترك أي فراغٍ في حَلْقِه، "لن يستطيع الصراخ" هكذا قال لها زياد، ثم صَفَعَ الزعيم حتى استيقظ، كان الغضبُ مُرْتَسِمًا على مَلامِحِه، ولكن زياد أمسك بزجاجةِ الوقود وقال له:

- هل تعرف ما هذا؟

عَقَدَ الزعيمُ حاجبيه وهو يُحاول فَكَّ قَيْدِه أو أن يقول شيئًا فلم تخرج منه سوى همهماتٍ مكتومة، فقال له زياد وهو يُدِيْرُ غِطاءَها:

- هذا وقود، مثل الذي سرقته من المستشفى، بعدما قتلت أبي، هل تَذْكُر؟

نظر إليه الزعيم مُتَسائِلًا، ثم تَحَوَّل التساؤل إلى هَلَعٍ عندما بدأ زياد يَصُبُّ مُحتوياتَ الزجاجةِ على جسده، ورائحة الوقود النَفَّاذة تَتَسَلَّل إلى أنفه، فأخذ يُصْدِر أصواتًا مكتومة غير مفهومة وهو يَتَلَوَّى مُحَاوِلًا التَمَلُّص من قَيْدِه، حتى انتهى زيادُ من صَبِّ مُحتوياتِ الزجاجة، ثم انتزع قطعةً قماشية من أحد أَفْرِشَةِ الحُجْرَة، وأشعلها من أحد المصابيحِ الزيتية، ثم ألْقَى قطعةَ القماش المُشْتَعِلة على جسدِ الزعيم وهو يقول:

- إلى الجحيمِ أيها الوغد!

أمسَكت النارُ على الفورِ بجسدِ الزَّعيم لتتصَاعَد مِنْه أَلْسِنَةُ اللَّهبِ، فأخذ يَتَلَوَّى ألمًا وقد ارتسمت على ملامحه أقصى آياتِ الهَلَع، أما فريدة التي تسللت رائحة اللحم المشوي إلى أنفها فقد أحست بغثيانٍ شديدٍ ثم تَقَيَّأَت، فرغم كراهيتها الشديدة لما فعله المُجْرِمُ بأبيها وما كاد أن يفعله بها، إلا أنها أحسَّت أن القتلَ حرقًا عِقَابٌ مَقِيتٌ، ولكن اشمئزازها خَالطه ارتياحٌ خَفِي للثأرِ منه، وكذلك نظر زيادُ إلى الجُثَّةِ المُحْتَرِقة وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة شامتة باردة.

*****

هزَّت فريدة رأسها لتَنْفُض المَشْهَد عن ذِهنِها، ثم نظرت إلى أخيها الذي يقودُ السيارةَ بملامحٍ جامدة وسألته:

- هل سنعود للمستشفى؟

هزَّ زيادُ رأسه نَفْيًا، لم تكن العودة للمستشفى ذات جَدْوَى بعد مَقْتَلِ أبيه؛ لقد ظن أن المُستشفى ستصبح مُستقرهما الأخير حتى تنتهي الكارثة، هذا إن انتهت! ولكن كلُ شيءٍ انْقَلَبَ رأسًا على عَقِب، فسألته فريدة:

- ماذا سنفعل إذن؟

صَمَتَ زيادُ قليلًا ثم قال:

- لقد فكرت في الأمر، سنذهب إلى العاصمة للبحث عن أمي، لم يَعُد لنا سِواها في تلك الكارثة؛ بالتأكيد الوضع هناك مُخْتَلِفٌ عن تلك المدنِ التي تركتها الحكومةُ ورائها، ربَّما بعلاقتنا بها نستطيع أن نجد لنا مكانًا آدميًا في العاصمة يَصْلُحُ للعيش.

كانت فكرة منطقية، ولكنها مَجْنُونة بالكامل! لقد وصلوا بِشِقِ الأنفس إلى المستشفى وهي في نفس المحافظة؛ فكيف بالوصول إلى العاصمة، والطريقُ طويلٌ ومليءٌ بالأخطارِ! وحتى إن وصلا إلى العاصمة كيف سَيَعْثُران عليها في مدينة بحجم القاهرة؟ أخبرت أخيها بما يدور في خاطرها فأجابها:

- لقد فَكَّرتُ في كلِ ذلك، ولكن لا بديل أمامنا سوى المُحاولة، علينا أن نُرَكِز أولًا على الوصول إلى القاهرةِ ثم نفكر حينها كيف سنصل إلى أمي.

سافر زيادٌ إلى القاهرةِ بصحبة والِدَيه عِدة مراتٍ من قبل، فكان الطريقُ مألوفًا له بعض الشيء، تذَكَّر أن الرحلة تأخذ في المُعْتَاد ما بين الخمسِ والستِ ساعاتٍ، ولكن لا يعرف في ظل تلك الظروف كم ستأخذ رحلته، بل لا يعرف إن كان سيستطيع الوصول! لَمْ تتجاوز تلك الأفكار الأخيرة شَفَتَيه لكيلا يُقْلِق أخته، وأَحَسَّ بها تَرْخِي رأسَها على كَتِفِه، ثم راحت في نومٍ عميق، فابتسم مُشْفِقًا، ثم وضع سماعاتَ الهاتِف في أُذنيه مُسْتَمِعًا لبعضِ الأغاني، وأحْكَمَ قبضتيه على مقود السيارة، مُتَجِهًا نحو العاصمة.

*****

استيقظت فريدة وهي تتثاءب ثم فتحت عيناها ونظرت إلى أخيها زياد فرأته منشغلًا في القيادة والنظر إلى الطريق، ولاحظت أثر الاجهادِ على ملامحه، واللونُ الأحمرُ الذي يكسو حَدَقَتَيْه، أحسَّ زياد بحركتها فالتفت إليها قائلًا:

- ها قد اسْتَيْقَظْتِ.

فقالت وهي تَفْرُكُ عينيها:

- أنتَ تحتاجُ لبعضِ الراحة.

لم يُجِبْهَا زيادُ وهو يُرَكِز على الطريقِ، فقالت له:

- أنا جائعة.

قال زياد:

- وأنا أيضًا، ولكننا لا نَمْلِك شيئًا نأكله الآن، أتمنى أن نعثُرَ على شيء.

اومَأت له فريدة ثم أراحت رأسَها على زجاجِ النافذةِ بِجوارها، وأخذت تنظر إلى الظُلمة اللانِهائِية المُتَتالية كالموجِ الأَسود، كادت أن تسأل أخيها كم الساعة الآن؟ ثم أدركت كم أن هذا السؤال عَبَثِي !! لم يَعُد هناك ليل أو نهار، بل هو ظلامٌ.. وشتاءٌ.. شتاءٌ أسود.

أحسَّت بالسيارة تُبْطِيءُ حَرَكَتُها، فانتبهت وهي ترى على ضوءِ كشَّافاتِ السيارةِ مبنىً صغيرًا، فقالت لأخيها زياد:

- ما هذا؟

قال لها زياد وهو يضغط مَكَابِحَ السيارة:

- أعتقد أنها استراحة مُخَصَّصة للمسافرين، ربَّما نَعْثُر على شيءٍ هنا.

وضع زياد قِناعَ الغازِ على وجهه، وأعطى الآخر لفريدة، ثم تَرَجَّلا من السيارة، وأغلقها بالمفتاح وراءه، ثم سار حامِلًا كشَّافه مُتجهًا ناحية المبنى الصغير. كانت أبواب الاستراحة مفتوحة ولم يكن هناك أثرٌ لبشرٍ، مما أراحهما، فَدَلَفَا بِخُطواتٍ حَذِرة، كانت هناك فَوضَى في كل مكانٍ، الأثاثُ مُترامي في كل مكان والعديد من الصناديقِ الفارغة التي بَدَا من هيئتها أنها قد نُهِبَت بعد الكارثة.

انْهَمَكَا في تفتيشِ كلِ رُكْنٍ ممكن بالمكان، بَحْثًا عن أي شيءٍ يكون الناهِبُون قد غَفَلُوا عن حَمْلِه. كان هناك سلم يَهْبِطُ إلى قَبْوٍ أسفل الأرضِ، فأشار لفريدة أن تتبعه، سارت وراءه بِخُطُواتٍ مُرْتَجِفَة من البردِ والخوفِ، لم يكن بالقبو شيءٌ مُثِيرٌ للإهتمام، نفسُ الفوضى بالأعلى. لم يَيْأَس زيادُ سريعًا وقرَّر ألا يعود أدراجه على الفور، أعاد التفتيشَ مِرارًا بين الصناديق المُتَرَامِية حتى عَثَرَ على بعضِ زجاجات المياه المعدنية المُتَجَمِّدة المُخْتَبِئة في أحدِ الأركانِ المُظْلِمَة، يبدو أن أحدهم غَفَلَ عنها، فأحسَّ بفرحةٍ شديدةٍ، ولكن الأَهم هو الطعام، الذي لم يكن هناك أثرٌ له.

عادا أدراجهما بخيبةِ أملٍ، وأمعاؤهما تُصْدِرُ زَمْجَرَةً مُحْتَجَّة، وضع زيادُ زجاجات المياهِ في المَقْعَدِ الخَلفِي، بعدما خلعا أقنعةَ الغازِ واستقرا في المَقَاعِدِ الأمامية، ثم أكملت السيارةُ طريقها، حاولت فريدة أن تعود للنوم مُجَدَّدًا ولكنها لم تستطع، فاستمرت كعادتها في التَحْدِيقِ خارج النافذة.

لم تعرف كم مَرَّ عليهما من الوقت قبل أن يقف زياد بسيارته مُجددًا، ورأت على ضوء مصابيح السيارة الأصفر الشاحِب الهيئةَ السوداءَ المظلمةَ لبعضِ المباني المُطِلَّة على جانب الطريق. ارتديا قناعيهما، وترجَّلا من السيارة مُجددًا، كانت هناك

محطة وقود، ولكنها كانت فارغة، قد استُنزِف منها كلُ قطرةٍ، ومُلْحَق بالمحطةِ سوبر ماركت من تلك النوعية المنتشرة على طُرقِ السفر. أخذا يُفَتِّشَان في المكانِ، بحثًا عن أيِ شيءٍ صالحٍ للأكل، كلُ شيءٍ قد تم نهبُه، ولكن زياد عثر على بعض البطاريات فوضعها في حقيبته، مَزِيدٌ من الضوء لكشَّافه، ثم واصل بحثه بعد ذلك عن الطعام، لم يكن هناك أثرٌ له، كاد اليأسُ يستولي عليهما مُجَدَّدًا، وفجأة وقع ضوءُ كشافِ زياد على شيءٍ ما يلمعُ في الظلام، كانت بعض مُعَلَّبات الطعام المُكَوَمة في أحد الأركانِ الضيقة، سارع ناحيتها وقلبه يَخْفِقُ بقوة، وتَبِعَتْه فريدة وهي تقول له:

- ما الأمر؟

صمت زياد وهو يمسك بواحدة من المُعَلَّبات، وقد ارتسمت على ملامحه الصدمة، أدرك حينها لما تخلفت تلك المعلبات، لقد كانت تَخُصُ طعامَ القططِ، ولما لَحِقَت به فريدة أدركت الأمرَ، ولكن هل أمامهما خيارًا آخر؟ وضع زيادُ المُعلبات في حقيبته، وبعدَ أن تأكدا من أنه لا يوجد أي شيء آخر عادا إلى السيارة. ناولها علبة وأمسَّك بالأخرى، لِحُسنِ الحظ كانت سهلة الفتح، حَمْلقَا في طعامِ القططِ، كانت الرائحة سيئة للغاية، تشبه رائحة السمكِ النَيِّء بعض الشيء. بدأ زيادُ في الأكل كي يُشَجِّع أخته، لم يختلف الطعم كثيرًا عن الرائحة، أحسَّ أنه يأكل سمك نيء معجون مع خليط من أشياءٍ أخرى، ولكنه أفضلُ من الموتِ جوعًا بلا شك. بعدما انتهيا من الطعام أحسَّا بعطشٍ شديدٍ، فتناول زيادُ زجاجةَ ماءٍ من المِقْعَد الخلفي، كان جو السيارة الدافئ بعض الشيء قد ساعد على ذوبانِ الثلج، ولكن درجة برودة الماء كانت ماتزال منخفضة، فآلم الماء أسنانهما أثناء الشرب.

قال زياد لفريدة إنه سينام ساعتين كي يستطيع مواصلة القيادة، وأعطاها مُسدسه

لتُمسِك به أثناء نومه كي تستطيع الدفاع عن نفسها حالة حدوثِ شيءٍ مُفاجِئ، فأمسكت به بأصابع مُرتجفة، لم تُحِب البقاء مُستيقظة وحدها، ولكنها أدركت أن زياد يفعل هذا طيلة الوقت من أجلها، فأحسَّت بالخجل من نفسها. وهكذا أمسكت بالمسدس وهي تتلفت يُمْنَةً ويُسْرَى من زجاج السيارة، ولكن لم يكن هناك شيء غير معتاد.

لاحظت أن ملامح أخيها تتلوى في ألمٍ وهو نائم، لا شك أنه يواجه أحلامًا مُزعجة، من يستطيع لومه! تذكرت أحلامها وهي نائمة، تحلم بالأيام السابقة للكارثة، حين كان كلُ شيءٍ على ما يُرام، لم تعرف أيهما أكثر قسوة؛ رؤية كابوسٍ مُخيف، أم رؤية حلم جميل ثم تستيقظ لتكتشف أنه كان مجرد حلم؟ استيقظ زياد حينها بحركة حادة انتزعتها من أفكارها، ثم أخذ يستعيذ بالله وهو يمسح بيديه على وجهه، فقالت له فريدة:

- هل أنت على ما يُرام؟

اومَأ لها برأسه وهو يُدِير مفتاحَ السيارة ليهدر المحرك، كوحشٍ أسطوري يستيقظ من سباته، وشقت السيارة الظلمة من جديد، أما فريدة فقررت أن ترتاح قليلًا، فاستسلمت للنوم وهو يرخي غلالته الرقيقة الرحيمة عليها، وراحت في نومٍ عميق.

الفصل الثامن

صاح زيادُ غاضبًا وهو يضرب مقود السيارة بقبضتيه:

- تبًا!

فتحت فريدة عيناها مُستيقظةً من النومِ فزعًا وسألته:

- ما الأمر؟

لاحظت أن السيارة متوقفة عن الحركة، فأجابها زيادُ وهو يَزْفُر في غيظٍ:

- لقد نَفَدَ وقودُ السيارة!

فسألته:

- ألا تحتفظ ببعضِ الوقودِ الاحتياطي في حقيبة السيارة؟

فقال لها:

- لقد استخدمته من قبل وأنتِ نائمة؟

فقالت بخوفٍ وهي تَتَلفَّت حولها:

- وما العمل الآن؟

فقال لها:

- علينا البحث عن بعضِ الوقود، لا حَلَّ سوى ذلك.

ارتَديَا قناعيّ الغاز بعد أن أبدل زيادُ المرشحاتَ، وخرجا من السيارة، وهو يحمل الجالون البلاستيكي في يَدِه، ويُضِيء الطريقَ بكشَافه الذي يُمْسِكُ به باليدِ الأخرى. لِحُسْنِ الحظ أنه اتخذ الطريقَ الزراعي المأهُول ولم يَسْلُك الطريقَ الصحراوي؛ وإلا ضاعوا للأبد وسط الصحراء. وهكذا بدأ يسيرُ على غير هُدى، يتمنى أن يلمح سيارةً أو محطةَ وقودٍ، أي مصدرٍ للوقود.

فجأة سَمِع صوتًا من بعيد، كأنه مُحَرِّك سيارة، في تلك الظُلمة والسكون قد تكون تلك السيارة على بُعدِ بِضْعَة أميالٍ، فالصوتُ يسافرُ إلى مسافاتٍ أبعد في مثل تلك الظروف. جذب يَدَ أخته وركض مُبتَعِدًا عن الطريق، لم تفهم فريدة في البداية لِمَ يفعل ذلك، ثم تناهى إلى مسامِعها صوتُ المحرك بدورها. اختبأت معه وراء إحدى الصخور الضخمة على قارعة الطريق، ومن بعيد ظهرت شاحنة صغيرة فوقها كشَّاف ضخم يُضِيء المكانَ على مساحةٍ كبيرةٍ، وبصندوق السيارة تقفُ مجموعةٌ من الرجال، ويُمْسِك أحدهم بكلتا يديه بسلاح جرينوف آلي موضوع على مُقَدِمة السيارة، فجأة صاحَ أحدُ الرجال:

- هناك شيءٌ في الظلام!

مع صيحته كاد قلب زياد أن يتوقف عن النبض وهو يُحْكِم قبضته على يدِ أخته، ثم سَمِعَ صوتَ رصاصات السلاح الآلي، قبل أن تتوقف السيارة غير بعيدٍ منهم، ثم تَرَجَّل أحدُ الرجال عن السيارة وبعد لحظاتٍ سمع صوته وهو يخاطب رفاقه قائلًا:

- إنه مجرد كلب!

فقال رجل آخر:

- مرحى! إنها وجبة عشاء.

مطَّ الرجل الأول شفتيه قائلًا وهو يَحْمِل الكلبَ الميت على كتفيه:

- أنت تعرف أي نوع لحم أفضل!

أطلق الرجل قهقهةً مجنونةً ثم قال وهو يضربه على كتفه:

- لا تخف، ما تزال عملية الصيد مُستمرة.

وهكذا عاد الرجل إلى السيارة، وأدار السائقُ مُحرِّكها من جديد، وانطلقت تَشُقُّ الظلامَ نحو المجهول.

ما أن ابتعدت السيارةُ عن ناظريهما حتى زَفَرَ زيادُ في ارتياح، فقالت له فريدة بصوتٍ واجِف:

- مَنْ هؤلاء؟

قال لها:

- لا أعرف، ولكن أيًا من كانوا فمن حُسْنِ الحظ أنهم لم يَرُونا.

ثم خرج من وراء الصخرة تتبعه فريدة وهي تسير بخطواتٍ مضطربةٍ، كانا يتلفتان من فوق كتفيهما خوفًا من أن تظهر السيارة مُجددًا، ولكن هذا لم يحدث لِحُسنِ الحظ، وبعد سيرٍ طويلٍ عَثَرا على مجموعةٍ من السياراتِ المُتَراكِمة، فيما بدا أنه حادث كبير قد وقع في هذا المكان. أخذ زياد يفحص السيارات، حيث كان أغلبها خاليًا من الوقود، ولكنه لم يستسلم حتى عثر في خزان إحدى السيارات على بعضِ الوقود، ولكنه لسوءِ الحظ لم يكن يكفي لِملء الجالون، وهكذا استمر البحثُ، يُصَفِّي كلَ سيارةٍ من كلِ قطرةِ وقودٍ يَعْثُر عليها، حتى ملأه وقرر العودة للسيارة.

ملأ خزانَ سيارته بالوقود، ثم أدار مُحركها، ولكن هذه المرة لم يكن مُطْمَئِنًا، فقد أثارت رؤية تلك السيارة الخوفَ والقلقَ في قلبه، كان يعرف أن صوتَ مُحرك سيارته قد يصل إلى آذانهم، ولكن ما باليد حِيلة، وجد نفسه يُتَمْتِم:

- "وجعلنا من بين أيديهم سَدًا ومن خَلْفِهم سَدًا فأغْشَيْنَاهم فهم لا يُبْصِرُون."

اضْطُرَّ زيادُ أن يَنْحَرف جانِبًا بسببِ الحادِثَة التي أغْلَقَت الطريقَ، بحثًا عن طريقٍ آخر، وفجأة اختلط بصوتِ مُحرك سيارته صوتُ محركٍ آخر، ثم وقع ضوءٌ شديدٌ على سيارتِه، فنظر في المِرْآةِ الجانبية ليرى الشاحنة الصغيرة تُلَاحِقَهُم والرجالُ يُطْلِقون صَيْحَاتًا مخيفةً جَمَّدت الدماءَ في عُروقِه، ويداه تَقْبِضَان بإحكامٍ على المقود، فقالت فريدة بفزع:

- إنهم هُم!

كانت السيارةُ الأخرى تقترب منهم، فبدأ زياد يُزِيد من سُرعته رغم خُطورة ذلك على الثلج، أطلق الرجلُ المُمْسِك بالجرينوف رصاصاته ناحية السيارة، فانحرف

زيادُ بقوةٍ بمجرد سماعِ صوتِ الرصاصات، ويبدو أن رصاصة منهن قد اخترقت إطار إحدى العجلات، فمالت السيارةُ بقوةٍ، وزياد يُكَافِح للسيطرة عليها، ولكن هذا كان مستحيلًا وسط الثلجِ، وصرخت فريدة في رُعْبٍ والسيارة تنقلب، وتزحفُ على الثلجِ مسافةً طويلةً قبل أن تتوقف عن الحركة وتستقر على جانبها.

أحسَّ زياد بالدماءِ الساخِنة تَسِيرُ على جَبْهَتِه، ولكنه مَدَّ يَدَه إلى فريدة وهو يقول بضعفٍ شديدٍ:

- فريدة .. هل .. أنتِ .. بخير؟

لم تُجِبْهُ فريدة فقد غابت عن الوعي، وسَمِعَ صوتَ الرجالِ يقتربون من السيارة المَقْلُوبة، أراد أن يصرخ "ابتعدوا أيها الأوغاد، أتركونا في حالنا!" ولكنه لم يَجِد طاقةً لفعلِ ذلك، رأى باب السيارةِ ينخلع، وأحدُهم يَجْذِب فريدةً من جِوَارِه، مَدَّ يده بضعفٍ لِيُمْسِكَ بها، ولكنه أحسَّ بالبابِ الآخر بجانبه ينفتح، وأحدهم يَجْذِبه بدوره، ويَجُرَّه من قدميه على الثلجِ، أراد أن يصرخ، أن يقاوم، ولكنه أحس بوعيه ينسحب منه، والظلامُ يَزْحَفُ إلى عقله، قبل أن يَغِيْبَ عن الوعي.

*****

فتح زيادُ عينيه بِبُطءٍ وهو يشعر بألمٍ شديدٍ في رأسه، أراد أن يتحسسها ولكن وجد يديه مُقيَّدتَيْن لأعلى بسلاسلٍ حديديةٍ، بل الواقع أنه مُعلَّقٌ منهُما. أحس بالدماء الجافة على وجهه، وشفتيه المُتيَبِّستَينِ، أجَالَ عينيه في المكانِ وقد تَسلَّلَت إلى أنفه رائحةٌ عَفِنَةٌ كريهةٌ، لم يَرَ شيئًا على الضُوءِ الخافتِ المُتسلِّل من مكانٍ ما، فحاول أن يَفُكَّ يديه المُقيدَتَيْن في السلاسلِ بقوةٍ فعَلَا صوتُ صَلْصَلةِ المَعْدَن، ولكن حركته تلك لم تُزِدْه إلا ألمًا في ذراعيه، فتوقف عن المحاولة.

جاءه صوتٌ خافتٌ من جِواره يقول:

- هل استيقظت أخيرًا؟

نظر زياد ناحية الصوت وقد بدأت عيناه تعتادان على الضوءِ الخافتِ، فلَمَحَ جَسَدًا مُعلَّقًا مثله، سَألَه بِضعفٍ:

- من أنت؟ أين أنا؟

قال الرجل بصوتِه الخَافِت:

- أنا مثلي مثلك، رجلٌ يكافح للبقاء حيًا في هذا العالم القاسي، حتى سَقَطْتُ في أيدي هؤلاء الوحوش.

سأله زيادُ بصوتٍ خافتٍ مثله:

- ومن هم هؤلاء؟

قال الرجل:

- أكَلَةُ البشرِ.

اتسعت عينا زياد في هلعٍ وقال:

- مـــاذا؟!

أجابه الرجل:

- ألم تَسْمَع بهم؟ إنهم يُثِيرُونَ الرعبَ في المنطقة، ويختبئ الناسُ خوفًا منهم، يأكلون لحومَ البَشَرِ بسبب نُدْرَة الطعامِ، ويبدو أن هذا قد حولهم لوحوشٍ دمويةٍ، يستمتعون بصيد فرائسهم ويتلذذون بتعذيبهم.

سقطت كلماتُ الرجلِ على زيادٍ كالصَّاعِقة، ثم قال له:

- فريدة! أختي، أين هي؟

قال الرجل:

- لم أرَ فتيات، ولكن للأسف مصير الفتيات أسوأُ بكثيرٍ من مصيرنا، فهُن يَلْقَيْنَّ ما هو أسوأ من الموتِ، قبل أن يتحوَّلْن إلى طعامٍ لهؤلاء الوُحوش.

حاول زيادُ فكَ قيده في جنونٍ، ودَوَى صوتُ صليلِ السلاسلِ مُرتفعًا وتردَّد صداهُ في المكانِ، حاول الرجلُ الغريبُ بجواره أن يُقْنِعَه بالتوقفِ عما يفعله، وفجأة انفتح المكانُ ودخلَ أحدُ الرجالِ، يُمْسِكُ بهراوةٍ غليظةٍ، صَائحًا بغضبٍ:

- ما هذا الإزعاج؟

صرخ فيه زيادُ بانفعالٍ بالغٍ:

- أين أختي أيها الاوغاد؟

ضرب الرجلُ زيادًا المُعَلَق من ذراعيه على جَنْبِه بهراوته وقال:

- توقف عن الصياح!

رغم أن الضربة آلمت زيادَ بشدةٍ إلا أنه حاول رَكْل الرجلِ بشراسةٍ، فقال له الأخير:

- حسنًا، ستكون أنت وجبة الليلة.

أخرج الرجلُ من جيبة سِلْسِلةَ مفاتيحٍ حديديةٍ، وفَك القفلَ الذي يُقَيِّد السلاسل إلى أيدي زياد ليُسْقِطَهُ أرضًا، وبعدها جَذَبَهُ من شَعْرِهِ، إلا أن زياد مَدَّ يده إلى جيبه يَتَحَسَّسَه بحثًا عن مديته الصغيرة، لِحُسْنِ الحظ أنها كانت هناك، فأخرجها وضغط على الزر الصغير ليخرج النصل ويُغْرِسَه في قدمِ الرجلِ الذي يَجُره فأفْلَتَه وهو يصرخ بألمٍ، استغل زيادُ ذلك ليُمْسِكَ بساقيه ويَسْقِطَهَ أرضًا لتنفلت الهراوة من يده، فأمسك بها زيادُ وأخذ يضربُ الرجلَ على رأسه ضرباتٍ متتاليةٍ والرجل يصرخ مُتألمًا حتى هَمَدَ صَوْتُه وتحولت رأسه إلى كومةٍ من اللحمِ المَفْرِي. لم يتوقف زياد عن الضرب رغم تَيَقُّنه من موتِ الرجل، كأنه يُفْرِغُ كل غضبه وغِلِّه وخَوْفِه، حتى سَمِعَ صوت رفيقه المُعَلَّق في الغرفةِ يقول له:

- كفى، لقد مات.

حينها فقط ألقى زيادُ الهراوة المُلَطَّخة بالدماءِ جانبًا وهو يشعر بالغثيان، ثم أمسك بسلسلةِ المفاتيحِ وسار باتجاهِ الرجلِ المُعَلَّق وبدأ يفك قَيْدَه، فسقط أرضًا ثم اعتدل وهو يَئِن ويقول:

- عظام جسدي كلها تؤلمني.

ثم مَدَّ يده لمُصَافَحة زياد وهو يقول:

- شكرًا لفك قيدي، اسمي أبانوب.

صافحه زياد بدوره قائلًا:

- وأنا زياد.

انحنى أبانوب على جُثةِ الرجلِ يُفَتِّشها فقال له زياد:

- ماذا تفعل؟

فقال له:

- أبحث عن أي شيء يُساعدنا على الهرب.

فقال زياد:

- لن أهرب دون العثور على أختي أولًا.

قال له أبانوب:

- هل أنت مجنون؟ وهؤلاء الوحوش بالخارج، تظن أنك ستستطيع إنقاذها من بين أيديهم؟

قال زياد بتصميم:

- سأفعل كل ما بوسعي.

فقال له أبانوب وهو يلتقط الهراوة الملوثة بالدماء:

- كما تشاء.

خطا زيادُ خارج الغُرفة ولَحِقَ به أبانوب، وعلى الضوءِ الباهتِ القادم من بعيد تبين لهما ممرٌ ضيقٌ به عِدة حُجُراتٍ مُتَشَابِهة، كانت هناك سلسلةٌ معلقةٌ بإحدى الحُجُرات

بها رجلٌ ممزقٌ بالكاملِ ، وتنبعث منه رائحةُ الجِيْفَة، فأحسَّ زيادُ بالغثيان، فهذه الجثة تمثل المصير الذي ينتظرهما لو لم يستطيعا الهرب من هذا المكان؛ نَفَضَ الفكرة عن رأسه وهو يتحرك بحذرٍ في الممراتِ مُمْسِكًا بمديته، وأبانوب يُمْسِك بالهراوة، في أحد الأركان سَمِعَا رجلين يتحدثان عن رفيقهما الذي تأخر وصوت الصراخ الذي تناهى إلى مسامعهما، فاختبأ زياد وأبانوب في أحد الأركان المظلمة، وشاهدا الرجلين يسيران في الظُلمة، وبعد أن اقتربا منهما، قفزا في حركةٍ مُفاجِئة ليسقطاهما أرضًا، فهوى أبانوبُ على رأسِ أحدهما بالهراوة ليَسْقُط دون أن يَنْبس ببنت شفة، بينما غرس زيادُ مديته في عُنُقِ الآخر وهو يكتم صراخه بيده الأخرى، فأخذ يتلوى بألمٍ، وعَضَّ يَدَ زيادٍ بقوةٍ، ولكن في النهاية خمدت حركتُه ولفظ أنفاسه الأخيرة.

اسْتَرَقَّ زيادُ السمع خِشْيَة أن يكون أحدهم قد شعر بما حدث، ولكن لم يتناهَ إليه سوى الصمتُ المُطْبِق، وهكذا أكملا سيرهما المتَسَلِّل. حمد زيادُ الله على تلك الظُلمة التي كانت ساترًا لهما، لا يقطعها من حين لآخر إلا بعض المَشَاعلِ البدائية، التي تُلقي ظلالًا تخدع بصريهما وتُجَسِّدُ أسوأ مخاوفهما، من أحد الاتجاهات أتاهما صوتُ صرخاتٍ متألمةٍ، هذا المزيج من الصراخِ المُتَألِّم مع الرائحة الكريهة ألقى في قلبِ زيادٍ خوفًا لم يشعر بمثله في حياته، وبشكل تلقائي ابتعد عن مصدر الصوت، مُتخذًا اتجاهًا آخر، وأبانوب يتبعه كظِله، حتى بَلَغَه صوتُ صراخٍ مُخْتَلِف، صراخٌ مُلْتَاعٌ لا مُتَألِّم، صراخٌ أُنْثَوِي!

*****

أسرع زيادُ ناحية مصدرِ الصوتِ ناسيًا حَذَرَه، كانت غرفة ضيقة عَطِنَة، بداخلها ثلاثة رجال يُحيطُون بفريدة، وقد مَزَّق أحدُهم سُتْرَتَها فأصبحت عارية الجِذع، وهي تصرخ في رعب. بدون أن يُضَيِّع لحظةً واحدةً في التفكيرِ؛ قفز زيادُ نحو أوسطِهم وغرس مديته في ظهره، فصرخ الرجلُ مُتألمًا، وانتبه الرجلان الآخران لوجوده، فركله أحدُهم بقوةٍ لِيَسْقُط أرضًا، على الفور قفز أبانوب بهراوته وضرب أحدهم على رأسه، فاسْتَلَّ الآخر مُسدسًا من جيبه ووجهه ناحية أبانوب، ولكن زياد الذي اسْتَلَّ مديته من ظهر الرجل الذي سقط أرضًا - مُضجرًا في دمائه - قذف مديته ناحية الرجل المُمْسِك بالمسدسِ فانغرست في ذراعه، وانطلقت الرصاصةُ لتخترق سقف الغرفة، فَشَقَّ صوتُها السكونَ بِدَوِيٍّ هائلٍ، وقبل أن يستعيد الرجلُ المُمْسِك بالمسدس تركيزه ضربه أبانوب بهراوته لِيُسْقِطَه أرضًا مُهَشِّمًا وجهه.

ركض زيادُ ناحية فريدة وهو يقول:

- هل أنتِ بخير؟

كانت فريدة متجمدة في موضعها مذهولة منذ بدء القتال، ولم تُدرك أنه أخيها إلا بعدما سَمِعَت صوته بسبب الظُلمة، فقال لهما أبانوب:

- لا وقت لذلك، صوت الرصاصة سيجذب البقية إلى هنا كالذباب.

خلع زيادُ مِعطفًا سميكًا من أحدِ الرجالِ الثلاثة الواقعين أرضًا، وغطى جسدَ أخته به، ثم أمسك بالمسدس الذي سقط من الرجل الثالث، وقال:

- هيا بنا.

سار ثلاثتهم عبر الممرات المُتقَاطِعة باحثين عن المَخْرَج، وبالفعل كما قال أبانوب جذب الصوتُ بعضَ الرجالِ، ولكن زياد ـ الذي أصبح في تلك اللحظة مُعْتَادًا على الإمساك بالمسدس ـ كان يُردي كل من يراه أمامه قتيلًا بطلقة من مسدسه، حتى لمحوا من بعيد باب الخروج، يقف أمامه رجلان، تكفلت طلقة من مسدسه بإزاحة أحدهم عن الطريق، ثم أصدر المسدسُ صوتَ تكةٍ معدنيةٍ مُعلنًا نفاد الرصاصات، فألقى زيادُ بالمسدس في وجه الرجل الآخر تبعتها ضربة من هراوة أبانوب، وبعدها فتح زياد الباب، وخرج ثلاثتهم يستقبلون الظُلمة والثلج براحةٍ لم يتوقعوها، وصاح أبانوب بمرحٍ غير مصدق:

- لقد هربنا!

رأى زيادُ الشاحنة الصغيرة ذات الجرينوف واقفة على جنبٍ، فركض ناحيتها وهو يصرخ برفيقيه للحاق به، ثم أخرج سلسلة المفاتيح التي استولى عليها من الرجل الذي هَشَّم رأسه، وأخذ يُجَرِّب المفاتيحَ بأصابعٍ مُرتجفةٍ، حتى انفتح البابُ أخيرًا، فجلس خلف المقود وهو يفتح الباب الجانبي لأخته، أما أبانوب فقد قفز في صندوق السيارة وهو يقول:

- تولَ أنت القيادة وسأتولى أنا السلاح.

أدار زيادُ مُحرك السيارة وأنطلق في الظلام، أما أكلة البشر فقد أحسوا بغضب شديد بعد هرب فرائسهم وما فعلوه برجالهم، فخرجوا وراءهم كالكلابِ المَسْعُورة.

لمح زيادُ السيارات التي تطاردهم في المِرآة الجانبية، فصاح كي يسمعه أبانوب:

- هل ترى ذلك؟

أصاح أبانوب بدوره:

- نعم، لا تقلق، ركز فقط على الطريق.

بعدها سمع صوت الجرينوف ينطلق بعدة طلقات سريعة مُتتالية، وإحدى السيارات المُطَارِدة تَنْحَنِي بشدةٍ قبل أن تنقلب على جانبها وتختفي عن ناظريه، وبعدها أطلقت السياراتُ المُطارِدة النارَ بدورها، لم يكن سلاحًا آليًا كالجرينوف، بل كانوا يُمْسِكُون في أيديهم ببنادق ومسدسات، وفجأة اخترقت رصاصة زجاج النافذة بجانبه فتهشَّمت وتناثرت إلى شظايا صغيرة، فحاول زياد أن يقود بشكلٍ مُتَعَرِّج كي يتفادى الرصاص، ولكن كاد هذا أن يُفْقِدَ السيارةُ توازنها على الثلج، فقال له أبانوب:

- على رَسْلِكَ يا رجل!

اضطر زيادُ للقيادة بشكل مستقيم، واستمر تبادل إطلاق النار، ولكن عدد السيارات المُطارِدة بدأ يقل بشكلٍ ملحوظ، وفجأة سمع زيادُ صوتَ تأوهٍ قادم من ناحية أبانوب فقال له:

- هل أنت بخير؟

لم يتلقَ إجابةً، ولكن تبادل إطلاق النار ظل مُسْتَمِرًا، حتى لم يَعُد هناك أي سيارات تطاردهم، ربما سقطوا جميعًا، وربما انسحبوا بعد يأسهم من الظفر بفرائسهم مُجددًا، وبعدما ابتعد لمسافةٍ كافية واطمأن أن لا أحد يُطاردهم، أوقف السيارةَ وخرج منها وهو يقول لرفيقه:

- لقد نجونا!

ولكنه ما إن استدار ونظر في صندوق السيارة حتى وجد أبانوب مضجرًا في دمائه وقد اخترقت جسده عدة رصاصات وهو مُتَشَبِّثٌ بسلاحه وابتسامة شاحبة مُرتسمة على ملامحه المُتجمدة، أحسَّ زيادُ بقبضةٍ باردةٍ تعتصر قلبه، وأدركت فريدة ما حدث فأخذت تبكي رغم أنها لا تعرفه، ولكنها أدركت أنه ضحى بحياته كي ينقذهما.

جذب زيادُ جثته من السيارة؛ كان يود أن يدفنها بشكل لائق ولكن لم يكن هناك وقتٌ لذلك، فأكلة البشر قد يعودون من جديد، فألقى على جثة أبانوب نظرة حزينة أخيرة ثم عاد إلى مقعده لينطلق بالسيارة من جديد والدموع متجمدة في عيناه، أي حياة تلك؟ وأي عبث؟ كانت الرياح ترتطم في وجهه من النافذة المكسورة، والبرد ينخر في عظامهما، كانت رائحة الموت تفوح من السيارة، وأراد بشدة مغادرتها، ولكن فكرة السير في هذا الثلج بدت مجنونة للغاية، فجأة لمح سيارةً مقلوبةً على جانب الطريق، إنها سيارتهما، فقال لأخته:

- انتظريني هنا.

لم تجبه فريدة فقد أصبحت طيلة الوقت صامتة وشاردة، لا تتبادل معه الحديث، أدرك زياد أن هذا من أثر الصدمة التي عانتها على يد أكلة البشر، ترجَّل من سيارته مُتجهًا ناحية السيارة المقلوبة وراح يفتشها، كانت حقيبته هناك، وأقنعة الغاز، والمرشحات، وطعام القطط وزجاجات المياه، وحتى مسدسه الذي وضعه في (التابلوه) كان هناك.

عاد زياد إلى السيارة بعدما استرد ما يحتاج إليه من السيارة المقلوبة، وأدار محركها من جديد مُكملًا طريقَ سفره، كان يتمنى أن يعثر على سيارةٍ في حالة جيدة صالحة

، قبل أن يقتلهما البردُ المُتَسَلِّلُ من النافذة المكسورة، ومن آن لآخر كلما رأى سيارة متوقفة تبدو بحالة جيدة كان يترجَّل ليتفحصها، لم يكن الأمرُ سهلًا فالعديد من السيارات قد نُهِبَ منها العديد من القطع أو أصيبت في حادث، كان الطريق يشبه مقبرة كبيرة للسيارات، ولكنه في النهاية عثر على سيارة في حالةٍ مقبولة، فتح بابها بمديته، بعدها مَدَّ يده أسفل (التابلوه) والتقط بضعةَ أسلاكٍ خضراءٍ وحمراءٍ وبرتقالية، مَزَّقَ سلكين باللونين الأحمر والأخضر ووصلهما معًا، فأخذت السيارة تُصدرُ صوتًا مُتَحَشْرِجًا قبل أن يدور المُحرك بهديره المُعتاد.

نقل زياد كل حاجياتهم إلى السيارة الجديدة، وجلست فريدة بصمتها المعتاد على المقعد المجاور له، وما إن أغلقوا الباب حتى استعادا إحساسهما القديم اللذيذ بالدفء، والذي بدا لهما في تلك اللحظة أثمن شيءٍ في الكون، والآن إلى العاصمة، من جديد.

الفصل التاسع

في الأفقِ المُظْلم البارد ظهرت بواباتُ القاهرة كأشباحٍ سوداءٍ لأطلالٍ مهجورةٍ صامتة، تلك البوابات التي رآها زيادُ في سفره قديمًا، عندما كان يقف بها موظف لتحصيل الرسوم من السيارات العابرة لتلك البوابات، أصبحت الآن مجرد ذكرى لزمنٍ بعيدٍ مضى، وقد تناثر أمامها العديد من السيارات التي تركها أصحابها وراءهم، ليتراكم عليها الثلجُ المُتساقِط فتظهر بهيئة هياكلٍ ثلجيةٍ مخيفةٍ.

لحُسن الحظ لم يكن الطريق مُغْلقًا بالكامل فقد استطاع زيادُ المرورَ بالسيارةِ، مُتَجِهًا نحو قلبِ القاهرة؛ كان يعرف من زياراته السابقة للقاهرة أن وسط البلد هي المنطقة الأهم في القاهرة، لذا كان أول ما خطر على باله هو التوجه ناحيتها.

ما إن توغلت السيارةُ في قلب القاهرة حتى أحسَّ زيادُ بالصدمة، لم تكن شوارع العاصمة كما توقع أن تكون، رأى آثارَ الفوضى والشَغَب في كل مكانٍ، وشِعَارات ضد الحكومة والحرب مرسومة على العديد من الجدران، بقايا حرائق في أماكنٍ مُختلفة، كما أنه التقى وجوهًا بشريةً في طريقه، البعضُ كان عَدَائِيًا وحاول إيقاف السيارة ربَّما لسرقةِ ما معهما، والبعضُ الآخر فَرَّ هاربًا من أمام السيارة مُخْتَفِيًا في قلبِ الظُلمة، والبعض الآخر ظل مُسْتَلقِيًا أمام نارٍ مُشتعِلةٍ بشكلٍ ما مُتَجَاهِلًا السيارة المارة بجواره.

لم يكن السيرُ في تلك الشوارع سهلًا، كانت هناك العديد من الحواجزِ والأسلاك الشَائِكة المُتَنَاثِرة في كلِ مكانٍ، لا شَكَّ أن الجيشَ قد وضعها في بداية الكارثة، لكن لم يعد هناك أثر للجنودِ حول تلك الحواجز، إلا من بعض المُدَرَّعاتِ المَهْجُورة هنا وهناك. أصبح يسير الآن بمحاذاةِ النيلِ الذي انعكست أضواءُ مصابيح السيارة على سطحه المُتَجَمِّد، أو ما يُعْرَف بطريقِ كورنيش النيل، كل ما عليه فِعْلُه هو أن يعبر كوبري قصر النيل حتى يجد نفسه في وسط البلد، ولكنه لمح أبراجًا مُرتفعة وكشَّافاتًا مُضِيئَةً وعددًا من رجالِ الجيشِ بأقنعةِ الغازِ المُتَقَدِّمة يُرَاقِبُون المكان بحرصٍ وحذرٍ. أدرك زيادُ بِحَدَسِه أن الاقترابَ قد يكون خطرًا فأوقف سيارته، وأطفأ كشَّافاتَ سيارته.

سألته فريدة:

- لِمَ توقفنا؟

كان في نَبْرَتِها بعضُ الحِدَّة التي اكتسبتها مُنْذُ الحادثةِ الأخيرة، فأشار زيادُ بإصبعه وهو يقول:

- هناك جنود.

فقالت:

- لِمَ لا نَذْهَب ونُخبرهم بِهَوِيَّتِنا ونسألهُم عن أمي؟ لا شك أنهم سيسمحون لنا بالدخول.

عَقَدَ زيادُ حاجِبَيه وقال:

- لا أعتقد أن الأمر بهذه البساطة.

قالت بِحِدةٍ مُتَزايدة:

- إذن فَلْنَبْقَ هنا في الثلجِ لنَتَجَمَد حتى الموت!

رغم حِدة فريدة إلا أنه أدرك أنها مُحِقَّة، فالهدف من رحلتهما هو الوصول إلى العاصمة، وها هما الآن على مَرْمَى خُطْوَةٍ من قلبِ القاهرة، التراجع لم يَعُدْ خِيَارًا، عليهما التَشَبُّثَ بأي أملٍ ولو ضَئِيل، فليس أمامه إذن سِوى المُخَاطَرة بالتقدم للأمام. حَسَمَ أمْرَهُ قائِلًا وهو يرتدي قناعَ الغازِ:

- حسنًا سأُجَرِّب الحديثَ معهم، فقط انتظريني هنا.

تَرَجَّل من السيارةِ وسارَ باتجاهِ الأبراج المُرتفعة، وما أن وقع عليه ضوءُ الكشَّافات حتى سَمِعَ صوتًا يأتيه عبر مُكَبِرات الصوت:

- تراجع على الفور وإلا أطلقنا النار!

قال زياد بصوتٍ مُرتفع؛ كي يصل إليهم:

- أنا زياد ابن الدكتورة سمية علم الدين دكتورة الهندسة الوراثية بجامعة أسيوط.

كرر الصوتَ بإصرارٍ وكأنه لم يقل شيئًا:

- تراجع على الفور وإلا أطلقنا النار!

تَبِعَتْهُ طلقةٌ تَحْذِيْريةٌ، فتراجع نحو السيارة وجلس بجوار أخته وهو يقول بيأس:

- لا فائدة، لن يسمحوا لنا بالدخول.

خَيَّم الوجُومُ على السيارة، ولعدة دقائق لم يتبادلا كلمةً واحدةً، ثم أدارَ زيادُ مُحركَ السيارةِ وبدأ يرجع بها للوراء، فقالت له فريدة:

- ماذا تفعل؟

قاله لها:

- سأبحث عن طريقٍ آخر.

أدركت فريدة أنه يفعل ذلك بدافع اليأس، ولكنها لم تُعَارِضَه، وبعد مسيرةِ عِدَّةِ أميالٍ أطلقت السيارةُ حشرجتها الأخيرة قبل أن تتوقف عن العمل. ضرب زياد مقود السيارة بقبضتيه عدة مرات وهو يصرخ:

- اللعنة! اللعنة!

صَمَتَ للحظاتٍ حتى هَدَأَ، ناظرًا من النافذةِ إلى الظلامِ والثلجِ، وبعدها قال لفريدة:

- هيا بنا.

ارتدى كلٌّ منهما قناعَه، وحمل زيادُ حقيبته، وبدأ يسير عبر الظُلمة والثلج، يُمْسِك بيدِ فريدة، وباليد الأخرى كشافه الكهربي، الذي يُلْقِي الآن ضوءً ضعيفًا، يُنِير أمامهما بِضْعَةَ أمتارٍ قليلةٍ، تلفَّت زيادُ حوله بحثًا عن مأوى من البرد، إلا أن الهواء البارد كان يَصْفَعَهُ أينما اتجه.

من قلب الظلمة ظهر بعض الأشخاص بهيئتهم البشرية ووجوههم الغارقة في الظِلال، يُمْسِكُ بعضهم بهراوات ومديات، قال أحدهم بصوتٍ ساخر:

- ماذا تفعلان هنا؟ هل ضَلَلْتُما الطريقَ إلى البيتِ؟

اسْتَلَّ زيادُ مسدسه من حِزامه ووجهه ناحيتهم صارخًا:

- أحذركم أنا مُسَلَّحٌ، ويمكنكم التخمين كم أرديت من قتيلٍ في طريقي إلى هنا!

توقف الرجال عن الحركة، ثم تقدم أحدهم بضعة خطواتٍ للأمام فسقط الضوءُ على وجهه وبدت عِدَّةُ نِدُوبٍ على وجنتيه وجبهته وهو يقول بنبرةٍ هادئة:

- شابٌ صغيرٌ مثلك لا يجب أن يُمسك بسلاحٍ كهذا، أخْفِضْه.

أطلق زياد طلقة بين قدميه فتجمد الرجل في موضعه ثم قال:

- حسنًا لقد أثْبَتَّ وجهة نظرك، ولكني أرى أنك تحمل حقيبةً منتفخة، ربما يمكننا مُقَايَضَتك مُقابل بعض الطعام والشراب، قل لي ماذا تحتاج؟

صمت زيادُ قليلًا ثم قال:

- أحتاج لبعضِ الوقود.

تبادل الرجالُ ضحكاتًا ساخرةً، ولكن الرجل ذى النِدُوب قال بصوتٍ جاد:

- الوقود كله اسْتَحْوَذ عليه الجيشُ، لم يعد لدى أحدٍ منا نقطة واحدة.

صمت زيادُ قليلًا وفريدة مُتَشَبِّثةٌ بيده، ثم قال:

- هل هناك طريق إلى وسط البلد؟ إن ساعدتني في ذلك فلك كل ما معي من طعامٍ وشرابٍ.

قال ذو النِدوب:

- هذا أمرٌ صعبٌ ولكنه ممكن.

تدفَّق الأملُ إلى قلبِ زياد، أما أحدُ الرجالِ فقال:

- هل ستساعده حقًا يا فأر؟

تجاهل الفأرُ سؤالَ الرجلِ وهو يقول لزياد:

- ولكني أُحَذِّرك، الدخول إلى وسطِ البلدِ لن ينفعك، لأنك لا تملك تلك البطاقات الخاصة الجديدة، إن أمسكوا بك سيقتلونك، أو الأسوأ سَيُلْقُونَكَ بالخارجِ.

لم يفهم زياد ما الذي يعنيه الرجل بالبطاقات الخاصة، ولكنه خمن أنها وسيلة جديدة يستخدمها الجيش لتحديد القاطنين داخل الحدود الخاصة، ورغم ذلك قال للرجل الذي أطلق عليه رفاقه اسم الفأر:

- مستعدٌ للمخاطرةِ، والأن تقدم أمامي ودُلَنِي على الطريق، وإن أقْدَمت أنت أو أحدٌ من رجالك على حركةٍ مفاجأة فلن أتردد في إطلاقِ النار.

أوْمَأ له الفأرُ برأسه، ثم اسْتَدَار وسار بِصُحْبَةِ رجاله، وزيادُ يتبعه بحرصٍ دون أن يُخْفِضَ مُسدسه أو يَطْرِف جفْنَه مرة واحدة.

*****

سار الفأرُ بِصُحبةِ رِجالِه مُتَقَدِّمًا زيادَ الذي يُمْسِك مسدسه وهو يوجه فوهته ناحيتهم ويسير وراءهم، حتى توقف الفأرُ عند موضعٍ محددٍ، وأمر رجاله بإزالةِ الثلجِ، راقبهم زيادُ بحرصٍ حتى انتهوا من إزاحته، وتَكَشَّفَ من تَحْتِه غطاءٌ دائريٌ معدني لإحدى فتحات المجاري. تعاون رجلان لِحَمْلِ الغطاءِ المعدني وقال الفأرُ مُوجِهًا حديثه لزياد:

- شبكاتُ المجاريَ هي الطريقُ الوحيدُ إلى وسط البلد، ولكنها شبكاتٌ مُعَقَّدةٌ تشبه المتاهة، من لا يعرف طريقه جيدًا قد يَضِلُ الطريق.

فقال زياد بشكٍ:

- وهل تعرف أنت الطريق؟

ابتسم الفأر وقال:

- بالطبع أعرف الطريق، لم يُطْلِقُوا عليَّ لقبَ الفأرِ عبثًا.

نظر زياد إلى بقية الرجال وقال:

- حسنًا ستأتي معي وحدك، وبعدما نصل ستأخذ ما اتفقنا عليه.

غَمْغَمَ الرجالُ في اعتراضٍ، ولكن الفأر قال:

- لا بأس.

وهكذا قفز الفأرُ أولًا من فتحة المجاري، تتبعه فريدة، وأخيرًا زياد الذي وجد أنهم في ممر يتسع لوقوفهم بالكاد، تتصاعد منه رائحةٌ كريهةٌ للغاية، ولكنها مُحْتَمَلَة بسبب عدم استخدام المجاري منذ فترة طويلة، كما أن وجودهم أسفل الأرض

جعلهما يشعران بالدفء مما أعاد إحساسهما مجددًا بأطرافِهما. أضاء الفأرُ كشّافًا صغيرًا وبدأ يشقُ طريقَه بين الممراتِ المُعَقَّدة لشبكة المجاري. كان زياد يُمْسِكُ مُسدسه بيد، ويتابع الفأر في سيره، مُتَحَفِّزًا لأي حركةِ غدرٍ مُحتَمَلة، ولكن سيرهم استمر بلا أي مفاجآت، حتى وقف الفأرُ أمام سلم أعلاه فتحة مجاري مفتوحة وقال لهما:

- هذه الفتحة ستأخذكما إلى شبكة المترو، محطة أنور السادات، إنها مهجورة الآن فلم يعد أحد يستخدم المترو.

ثم مَدَّ يده إلى زياد وهو يقول:

- والآن جانبك من الاتفاق.

أخرج زياد عُلَبَ طعامِ القططِ القليلةِ المُتبقِّيَة، وزجاجةَ مياهٍ مُتَجَمِّدَة، ليناولهم للفأر الذي أخذهم منه بلهفة، ثم قال له وهو يشير لأعلى:

- انتبها لنفسيكما بالأعلى، لا أظن أنكما ستبقيان على قيد الحياة كثيرًا.

وقبل أن يجيباه استدار عائِدًا أدراجَه من جديد حتى ابتلعته الظُلمة، ساعد زيادُ أخته فريدة على تسلق السلم ثم تبعها، ليجدا نفسيهما في حجرةٍ صغيرةٍ، ما إن خرجا منها حتى رأيا أمامهما ممرًا مُظلمًا طويلًا، وأسفل قدميهما قُضْبَان المِترو والأرض المُعَبَدة بالصخور.لفَّهُما الإحساسُ بالدفءِ، فخلع زيادُ قناعَه، وكذلك فعلت فريدة، ثم سارا عبر النفقِ المُظْلِم، حتى وصلا إلى رصيفِ المِترو، وصعدا السلالمَ المُتحركة المتوقفة عن الحركة، وما أن وصلا لقمةِ السُلَّم حتى سمع زيادُ أصواتًا ورأى ضوءً من بعيد، لم تكن المحطة مهجورة كما أخبره الفأر، فرفع سَبَّابَتَه

إلى شفتيه في إشارة لفريدة بالتزام الصمت، وأطفأ كشَّافه الكهربي، وهو يتقدم بخُطواتٍ بطيئةٍ.

في قلب محطة المترو رأى عددًا من الأشخاصِ، بعضهم يجلس بجوار النار، بعضهم نائم على الأرض ملتحفًا بأغطيةٍ ثقيلة، والبعض الآخر يتبادل أطرافَ الحديثِ، إلا أن القاسمَ المشتركَ بينهم جميعًا هو البؤسُ المحفورُ على ملامحهم. تبادل وفريدة نظراتٍ حائرةً قلقةً، ماذا يفعلان؟ ظلا مُتَجَمِّدَين في موضعهما لبضعِ دقائق يُفكران فيما يجب عليهما فعله، وفجأة أحسَّ زيادُ بحركةٍ من خلفه، وقبل أن يقوم بأي ردةِ فعلٍ أحسَّ بيدٍ قويةٍ تُمسِكُ بكتفه، وصوت يقول:

- ماذا تفعلان هنا؟

صرخت فريدة من المفاجأة، أما زياد فحاول أن يَتَمَلَّصَ من القبضةِ القوية وهو يقول:

- اتركني!

إلا أن الرجل جذبهما من ملابسهما، وما أن أصبحا في دائرة الضوء حتى نظر الآخرون ناحيتهما بدهشةٍ وتساؤلٍ، ولاحظ زياد ما يشبه خيمة مُقامة من بعضِ الأفرشةِ البالية والخِرق القُمَاشِيَّة، تَحَرَّكَ الرجلُ باتجاهها وصاح:

- عَثَرْتُ على مُتَسَلِّلِين يا جدة.

مرت لحظات من الصمت قبل أن تخرج امرأةٌ عَجُوزٌ من الخيمة متكِئَةٌ على عصا خشبية، ونظرت بأعينٍ مُجْهَدةٍ ناحية زياد وفريدة، ثم وَكَزَت الرجل في كتفه بعصاها وقالت:

- اتركهما يا أحمق، ألا ترى أنهما ليسا أعداء؟

أزاح الرجلُ يديه على الفور، وتراجع باحترام، أما العجوز فقد أشارت لهما باتباعها إلى داخل الخيمة المتواضعة، كانت هناك بعضُ الوسائدِ على الأرض، أشارت لهما بالجلوس، وقالت:

- لا تخافا، لن يؤذيكما أحد، فنحن نرحب بكل اللاجئين، ولكن أخبراني ما قصتكما؟

تبادل زياد مع فريدة نظراتًا ذات مغزى، فأومأت له برأسها، تبدو العجوزُ جديرةً بالثقة، وهكذا أخذ زياد نفسًا عميقًا، يروى لها ما حدث منذ هذا اليوم الذي تلقى فيه اتصالًا من أمه، مرورًا بكل ما لاقاه من صعابٍ ومتاعبٍ حتى وصل مع أخته إلى محطة المترو.

كانت حكايته مُؤَثِّرةً للغاية، وخصوصًا مقتل أبيه أثناء تصديه للمقتحمين، ومقتل الفتى الشجاع أبانوب أثناء الهرب من أَكَلَةِ البشر، فبدا التأثر على وجه العجوز، التي قالت بأسى:

- من المؤسف أن يضطر اثنان مثلكما في ريعانِ شبابهما إلى مواجهة كل هذا الحزن والقسوة، ولكن هذا هو واقع العالم الذي نحيا فيه الآن.

ثم قالت لهما:

- لا شك أنكما جائعان، تعاليا معي.

خرجت من الخيمة يتبعها زياد وفريدة، وتوجهت ناحية مجموعة من الرجال يتحلقون حول النار، وتسَلَّلَت رائحةٌ شهيةٌ إلى أنفِ زياد، ولاحظ أن هناك قِدْرًا

أخيرًا موضُوعًا على النارِ، وأحد الرجالِ يقوم بتقليب مُحتوياتِه، وما أن رأوا الجدة على صاح أحدهم:

- موعد الطعام.

تجمع الرجالُ حول القِدْر يُمْسِكُ كلُ واحدٍ منهم بطبقٍ صغير، يَغْرِفُ الرجلُ لكل واحدٍ منهم مِقْدارًا صغيرًا لا يكاد يكفيه من مُحتويات القِدْر، حتى حان دور فريدة ثم زياد الذي أمسك بالطبق الساخن مُستمتعًا بالإحساس بالدفيء والرائحة تتسلل إلى أنفه، فبدأ يتناول الطعامَ بِنَهَمٍ، جلست الجدةُ بجوارهما وهي تُمْسِكُ بطبقِ حساءٍ بدورها، أخذت منه بضعة رشفات، ثم قالت لزياد:

- حساء فِطْر عَيْشِ الغُرَاب، هذا هو الشيء الوحيد الذي يَنْبُتُ في الظلام.

كان زياد في الماضي لا يحب عيش الغراب، إلا أنه شعر في تلك اللحظة أن هذا الحساء هو أشْهَى ما تناوله في حياته. وبعدما انتهوا من الطعام بدأت فريدة تتثاءب، وأحسَّ زيادُ بالتعب بدوره، فَوَفَّرَت لهما الجدةُ فِراشًا وغِطاءً، وناما بأحدِ الأركانِ في محطة المترو، يشعران بالدفء والشبع، ولأول مرة منذ حادثة المستشفى ينام زيادُ نومًا عميقًا.

الفصل العاشر

اسمها الجدة بَخيتة، واحدة من هؤلاء الذين اعتصموا في ميدان التحرير بعد اندلاع الحرب، قبل أن تواجه الحكومةُ المُعتَصِمِين بالقوةِ والعنفِ، فالموارد قليلة، وقِلَّة مُختَارة فقط هي من ستنعم بها، أما هؤلاء الصعاليك فمصيرهم الإلقاء خارج أسوار الحِصن الذي أقامته الحكومة. لم يستسلم الناس بسهولة بل تسَلَّلوا إلى محطاتِ المترو بحثًا عن الدفء والأمان، وبينهم الجدة بَخيتة، التي أَلْهَم صمُودُها - رغم سنها الكبير - الناس فالْتَفُّوا حولها، أحسُّوا أنهم يحتاجون إلى شخصٍ في حكمتها كي يَدلُّهُم على الطريقِ الصحيحِ، وبشكلٍ ما اكتسبت احترام قاطِني محطات المترو المُختَبِئِين عن أعين الحكومة، وأصبحت الجدة بَخيتة هي جدة الجميع وأمهم وآمِرتهم وناصِحتهم.

أحسَّ زيادُ بالارتياح لوجوده في محطة المترو، واعتاد على وجود الدفء والطعام، أما فريدة فمنذ حادثة أَكَلَة البشر وهي صامتة ومُنْزَوِية، لا تتكلم كثيرًا، تأكل وتنام، وتقضي بقية الوقت شاردة، ورغم محاولات زياد المستمرة لِمُواسَاتِها، إلا أنه لم يستطع انتزاعها من شرودها، فقط الزمن قادرٌ على مُداواةِ جروحها، وإن كان مُتيَقِّنًا من أنها ستترك ندوبًا لن تَنْدَمِل.

لاحظ زياد أيضًا أن الصمتَ هو السمةُ الغالبةُ على قاطِني محطة المترو، فلا يتحدث أحدٌ إلا بصوتٍ هامسٍ، الوحيدُ صاحب الصوتِ المُرتفع هو الرجل الذي أمسك بهما حين قدومهما أول مرة، والذي عرف لاحقًا أن اسمه جلال، وهو الذي قَصَّ عليه فيما بعد حكاية الجدة بَخيتة.

في أحد الأيام لاحظ زيادُ حركة غير طبيعية بين قاطِني محطة المترو، فسأل جلال:

- ما الأمر؟

فقال له:

- اليوم السبت.

فقال زياد بِحِيْرَةٍ:

- وما الذي يَعْنِيه هذا؟

سمع صوتَ الجدة من ورائه تقول:

- السبت هو موعد توزيع نصيبِ كل فردٍ من المُؤَن.

فقال زياد متعجبًا:

- وهل تأخذون أنتم أيضًا نصيبًا من ذلك؟

نظرت له الجدة نظرة تجمع بين الشفقةِ والحزن وقالت:

- بالطبع لا، نحن لا وجود لنا بالنسبة لهم، ولكنهم بسبب كِبَر العددِ وطول الطوابير، لا يَفْحَصُون بطاقاتِ الجميع؛ فَحْصُ البطاقاتِ يتم بانتقاءِ عَشْوَائِي توفيرًا للوقتِ، فيُغَامِر بعضُنا من أجلِ فرصة الحصول على بعض الطعام والشراب.

قال جلال وهو يضع وِشَاحًا صُوفِيًا حول رقبته كي يَقِيه من البرد:

- سأذهب اليوم.

لم يخرج زيادُ من محطةِ المترو منذ قدومه إليها، لذا رغبَ في أن يصحبه لمعرفة شكل الشوارع والمباني بالخارج، ربما يَعْثُر على طرفِ خيطٍ يَدُله على أُمِّه، كما أنه لم يرغبْ في أن يُصبح مجرد عبءٍ عليهم، أراد أن يشاركهم فيما يفعلون، فقال لجلال:

- سآتي معك.

فسمع صوتَ فريدة من ورائه وهي تقول:

- أنا أيضًا سآتي!

التفت إليها مُعترِضًا:

- لا لن أُعَرِّضَكِ للخطر.

فقالت بعناد:

- لقد بدأنا كل شيء سويًا ولم نفترق، لِمَ تذهب وحدك هذه المرة؟

قال لها:

- لأني أخوكِ الكبير، ومسؤلٌ عن حمايتك.

فقالت له:

- وماذا لو حدث لك مكروهٌ لا قدر الله؟ هل أجلس هنا مكتوفة الأيدي أَجْهَلُ ما حدث لك؟ موتنا سويًا أهْوَنُ عليَّ من ذلك!

مع كلماتها الأخيرة ترقرقت الدموعُ في عينيها، كان هناك بركان مشاعر ثائرٍ في نفسها تُجَاهِدُ لكبْحِه كيلا ينفجر، فاحتضنتها الجدةُ وربتت على كتفها، وفي تلك اللحظة أجْهَشَت فريدة بالبكاءِ بنحيبٍ مُرتفع، فقال لها زياد:

- أعدك أنني سأعود.

استمرت فريدةُ في دفنِ وجهها بأحضانِ الجدة، فأخرج زيادُ قناعي الغاز من حقيبته؛ لِيُنَاوِل جلالَ واحدًا ويرتدي الآخر، ثم سارا باتجاه السُلَّم الذي يصعد إلى سطح الأرض، أشار له جلال بأن ينتظره، وتسلل بحذر عبر الظِلالِ مُسْتَرِقًا النظر إلى الشارع، لم يكن هناك أحد، فأشار لزياد أن يتبعه.

كانت الشوارع مُظلمةً وساكنةً، المباني كلها مُغلقة، ارتسم على بعضها عباراتٌ مُنَاهِضةٌ للحكومة، وأُخرَى كُتِبَ عليها شتائم، كما ظهرت آثارُ العنفِ والفوضى في أماكنٍ عديدةٍ. من حينٍ لآخر تُطِلُ بعضُ الوجوهِ الحَذِرَة من النوافذِ التي يتسلل منها الضوءُ، أحيانًا يكون ضوءً مُتَراقِصًا يدل على أن مصدره نار مشتعلة بطريقةٍ ما، وأحيانا أخرى يكون ضوءً ثابتًا يدل على أنه من مصدرٍ كهربي، إلا أن تلك الأخيرة كانت قليلة للغاية.

أكملا سيرهما حتى وصلا إلى ميدان التحرير الشهير أمام مُجَمَّع المصالحِ الحكومية، وفي تلك الساحة رأى مُدَرَّعاتِ الجيش وأمامها طوابير طويلة من البشر، بعضهم يرتدي أقنعة غاز مثلهم، والبعضُ الآخر يُحِيْطُ أنفَه وفمَه بقطعة قُماشِيَّة، والآخرين بلا شيء يحميهم، يَرْتَسِمُ على وجوههم اليأسُ والانكسارُ، الكلُ ينتظر دَوْرَهُ للحصولِ على مَؤُونَتِه، ويَمِدّ يده مُتَوَسِّلًا عندما يَحِيْن الدورُ.

كان زيادُ يتخيلُ أصحابِ البطاقاتِ الخاصة مُرَفَّهِين مُنَعَّمِين، ولكنه أدرك الآن أنهم لا يختلفون كثيرًا عن قاطِني المترو، الكل شريكٌ في المركبِ الغارق. اصْطَفَّ مع جلال في الطابور حتى يَحِيْن دورهما، وقلبهُ يَدُقُّ بِعُنْفٍ، ماذا لو انْكَشَفَ أمرَهُمَا، لاحظ أَنَّ جنودَ الجيشِ من آنٍ لآخر يُطَلِبُون أحدهم بإظهار هويته بشكلٍ عشوائي، ومر الوقتُ طويلًا وبطيئًا، حتى جاء دور أحد الواقفين في الطابور وطلب منه الجندي أن يُظْهِرَ بطاقَته، فظهر على وجهه التردُدُ والخوفُ، فصاحَ الجُندي في الجنود الآخرين:

- دخيلٌ، أقبضوا عليه!

وفجأة ركض الرجلُ مطلقًا لساقيه العنان، ولكن الجنود أطلقوا النار بلا تردد وأردوه قتيلًا، أمام عيني زياد المذهولتين، أما البقية فعادوا إلى دَوْرِهم بوجوهٍهِم البائِسة. حتى حان دور جلال أخيرًا ومَرَّ على خيرٍ، ثم حان دور زياد الذي أحسَّ بقلبه ينتفضُ بقوةٍ بين أضْلُعِه، لو أحسُّوا به سَيَشُكُّون في أمره وستكون نهايته بالتأكيد، ولكنه وَجَدَ نَفْسَه يتسلم كيسًا بلاستيكيًا لم ينظر في محتوياته بل حَمَلَهُ وسارَ باتجاهِ جلال الذي كان ينتظره في أحدِ الأركان البعيدة، وما أن رآه حتى قال له:

- لا أصدق ما مررنا به بالتو!

فضحك جلال ولَكَمَهُ في كتِفه وقال:

- الحظُ كان حليفنا اليوم يا فتى.

ثم عادا باتجاه محطة المترو، وتأكدا أن أحدًا لا يتبعهما، قبل أن يهبِطا دَرَجَاتَ السُلم المُؤَدِّى إلى المحطة أسفل الأرض، وكان أول ما تلقاهما وجه فريدة الشاحِب، التي ما أن رأت أخيها حتى توَرَّد وَجْهُهَا وهي ترتمي في حضنه، فرَبَتَ زيادُ على كتفها وهو يقول:

- عُدْتُ من أجْلِك كما وعدتك.

فجاءه صوتُ الجَدَّة من ورائِها:

- حمدًا لله على سلامتكما.

وفي ذلك اليوم أثناء تناولهم العشاءَ الساخنَ أخذ جلال يَقُصُّ ما حدث في ذلك اليوم، ووصف مشاعرَ زياد بطريقةٍ ساخرةٍ، فارتسمت ابتسامة شاحِبة على وجه بعضهم، أما الباقين فأخذوا يتناولون الطعام في صمتهم المعتاد.

*****

مرت الأيامُ بخطى هادئة رتيبَة، ما بين أكلِ الفِطْر، أو الطعام المُعَلَّب الذي توزعه الحكومة بكمياتٍ قليلةٍ، وأحيانا يمر يومٌ كاملٌ بلا طعامٍ، إلا أن الدفء كان متوفرًا دومًا، حيث يتحلق قاطِني المترو حول النار، أحيانا ما يعثرون على حيوانٍ شاردٍ في أنفاقِ المترو يكون وليْمَة اليوم، إلا أن هذا الأمر كان نادر الحدوث، وبمرور الوقت تَعَوَّدَ زيادُ ألا يسأل عن طبيعة الطعام أو نوعه، يكفيه أن يجد ما يَسِد رَمَقَه.

كان يفكر دومًا في الوصولِ لأمه، إلا أن الأمرَ كان يشبه البحث عن إبرةٍ في كَوْمَة قَشٍ، كما أنه لا يستطيع سؤال الجنود أو رجال الحكومة الرسميين عن أمه؛ خوفًا من اكتشافِ هويته كمُتَسَلِلٍ للمدينة، لذا استمر في بحثه السري عن طرف خيطٍ يقوده إلى أمه، وقد عَلَّمَه جلالُ أسرارَ شوارعِ العاصمة، والمَوَاضِعِ المهجورة التي يذهبون إليها للبحث عن أي شيء ذي قيمة لاستخدامه، ربما بعض الخشب لحرقه، أو بقايا طعام غَفَلَ أحدهم عنه، وكانت فرحة زياد كبيرة عندما عثر ذات يوم على بعض الكتب أسفلَ أَكْوَامٍ من الخُرْدَة، فقال له جلال:

- يمكننا حرقها للحصول على بعض الدفء.

فقال له زياد مُسْتَنْكِرًا:

- لن نحرق الكتب بالطبع.

وتَشَبَّثَ بهم حتى عاد لمحطة المترو، لاحقًا أصبح من المألوف رؤية زياد يجلس بجانب النار يقرأ كتابًا، أو يُنِيْر صفحاته بكشَّافِه الكهربي حين لا يكون هناك نار، وأخته التي تشاركه حبه للقراءة أخذت تقرأ بعض الروايات بِنَهَمٍ، فأحسَّ زيادُ بالسعادةِ لكونها بدأت تتجاوز الصدمةَ التي مرَّت بها.

ذات ليلةٍ اقترب جلال من زيادِ المُتَّكِئ بظهره إلى الحائط وهو يقرأ واحدًا من كتبه، وجلس بجواره صامتًا، وهو ينظر إلى الجدة متوكئة على عصاها، وهي توزع ابتساماتها على الجميع، أو تَرْبُتُ على كتف بعضهم، تَبُثُّ الطمأنينةَ والدفءَ في قلوبهم.

انتبه زيادُ إلى جلال الجالسِ بجواره، فوضع إِصْبَعه بين صفحاتِ الكتابِ وهو يُغلقه، ثم انتبه إلى أنه ينظر ناحية الجدة، ثم قال له جلال:

- تعرف، لولا الجدة لكنتُ غادرت محطةَ المترو تلك.

فقال زياد بتعجب:

- ولِمَ ذلك؟

زفر جلال ثم قال:

- العيشُ أسفل الأرضِ، الخوفُ المستمر من رجالِ الجيش، والمدينة ذاتها مُحاطة بأسوارٍ وأبراجٍ، أشعر أني سجين مُقَيَّد في تلك المدينة.

فقال له زياد بأسى:

- أشعر بما تُعانيه، ولكن ما البديل أمامنا سوى تلك الحياة المقيتة؟

صمت جلالُ قليلًا ثم قال له:

- بعضُ المُتَسَلِّلين إلى المدينة يحملون أخبارًا، عن مُعَسْكَرِ صَيْدٍ أُقِيْمَ في شمال الدلتا بالقرب من البحرِ المُتَوَسِّط؛ يقولون إنَّ الحرارةَ أدفأُ هناك بسبب قُربِهم من البحر، ولكنهم يُعَانون أحيانًا من رياحٍ شديدةٍ، هذا المعسكر يبحث عن الحرية بعيدًا عن

قبضة الجيش، كما أنهم يعيشون على الصيد، ويساعدون من يلجأ إليهم ويَلُوذُ بهم، لذا أطلقوا على هذا المعسكر اسم الملاذ.

سأله زياد بتعجبٍ:

- وهل هذه الأخبار حقيقة، أم مُجَرَّد شائعات؟

هزَّ جلالُ كتفيه وقال:

- لَسْتُ مُتَأكِدًا، ولكنَّ الأخبار مُتناثِرة هنا وهناك، وسمعتها من أشخاصٍ مُختلفين يَصْعُبُ أن يكونوا قد التقوا ببعضهم البعض، مما يُرَجِّحُ كونها حقيقة.

ارتسمت في مُخَيلَة زياد صورةُ هذا المُعسكر، وأحسَّ بنفسه تَتُوقُ إلى شيءٍ آخر غير الدفء والطعام، أحسَّ بها تَتُوقُ إلى الحرية.

مرت أيامُ الشتاءِ الأسود كئيبةً ومتشابهةً، وإن كان شيءٌ تغير في نفس زياد، لم يَعُد مُسْتَسْلِمًا للعيشِ في محطةِ المترو، وأحسَّت فريدة بما يَعْتَمِل في صدره، فقالت له يومًا وهما مُستلقيان بجوار النار استعدادًا للنوم:

- ما بك يا زياد؟

قال لها:

- إلى متى ستستمرُ تلك الحياة؟ أتمنى لو عثرنا على أمي، وحدها تستطيع إجابتنا على ذلك السؤال.

فقالت له:

- سَنَعْثُرُ عليها بإذن الله.

تَنَهَّد زيادُ وقال:

- بإذن الله.

كان اليومُ هو السبت، وقد خرج رجلان لإحضارِ الطعام، مرَّ الوقتُ طويلًا قبل أن يعود أحدهُمَا خائفًا وَجِلًا، سألته الجدةُ عن رفيقه فحكى لهم ما حدث، طلب الجنود من رفيقه إبراز هويته فارتَبَكَ وحاول الهرب فأطلقوا عليه النار، حينها أصيب هو بالخوفِ بدوره فتراجع مُنْسَحِبًا من الطابورِ دون أن يَرْكُض كيلا يُثِيْر شَكَ الجيشِ، ثم عاد إلى محطةِ المترو.

قالت له الجدة بعتابٍ:

- انسحابك من الطابور وحده كافٍ لإثارة الشكِ، أتمنى ألا يكون أحدٌ من الجيشِ قد تَبِعَكَ إلى هنا.

فقال الرجل:

- اطمئِني لم يلحق بي أحدهم.

زفرت الجدة بحرارة وهي تقول:

- أتمنى ذلك حقًا.

ساد جوٌ من الوجُومِ على محطةِ المترو، بسبب موت رفيقهم، وبسبب خوفهم من اكتشاف الجيشِ مخبأهم، ولكن اليوم مرَّ على خيرٍ، وفي المساءِ بعد تناولهم بعضًا من حساءِ عيش الغُراب، ذهب زيادُ لِيَضَّجِع بجوار النار، وأفكارٌ مُظْلِمة تَحُوْمُ حول عقله. سرعان ما غَرِقَ في النومِ، إلا أن الأفكارَ السوداءَ استمرت في مُطاردته على

هيئة كوابيس، تكرر في حلمه مشهدُ قتلِ أبيه، فاستيقظ من نومه فَزِعًا والجميعُ نائمون، حاول العودة للنوم فلم يَسْتَطِع، كانت النارُ تكاد تذوي فوضع بها بعض الحطبِ، وجلس يتأملُ النارَ والأشكالَ العشوائية التي تصنعها حركتها الراقصة، مُحاولًا أن يشغل نفسَه عن التفكير في تلك الكوابيس.

انتزعته من أفكاره أصواتٌ قادمةٌ من ناحية مدخلِ المحطة، فسار بحذرٍ مُستترًا بالظُلمة كي يعرف ما الذي يجري؛ فتفاجأ بمجموعةٍ من الجنودِ بملابسهم الرسمية وأسلحتهم يتقدمون بحذر، لقد كُشِف أمرهم! تراجع بحذرٍ دون أن يُشْعِرَ به الجنود وبدأ يُوقِظُ الجميعَ وهو يقول بصوتٍ هامس:

- الجيش هنا!

استيقظ الجميع فزعًا، فأمسك زياد بحقيبته ليُخْرِجَ منها المسدس وأوقظ أخته التي فتحت عينيها الناعستين بتساؤل؛ لم تكن تحتاج لشرحٍ طويل كي تفهم ما يجري، بدأ الناسُ يتحركون باتجاه أنفاقِ المترو المظلمةِ التي تتجه إلى محطاتٍ أخرى مختلفة، رغبةً في الهربِ من قبضةِ الجيشِ، في تلك اللحظة ظهرَ الجنودُ، وتفاجؤوا بالناسِ وهم يهربون فصاح قائدُهُم:

- توقفوا عن الحركة على الفور وسَلِّمُوا أنفسَكم، من سيتحرك منكم أو يحاول الهرب سنُطْلِقُ النارَ عليه!

ولكن الجميع كان يدرك أن إمساكهم يعني الموت المحتوم، وهكذا بدأوا يركضون كي يلوذوا بحياتهم، وسمع زيادُ وراءه صوتَ إطلاقِ النار، فاستمر في الركض وهو يُمْسِكُ بيد أخته، مُتسللًا إلى النفقِ المظلم وآلمت قدميه الصخورُ والقضبانُ

الحديدية، ولكنه لم يقدر على التوقف. فجأة أضاءَ النفقُ بكشَّافِ أحد رجال الجيش، وسمع صوتًا يطلب منه التوقف، يبدو أن أحدهم قد لحق به! فلم يفعل زياد سوى أن ركض بخطواتٍ أسرع وهو مُتَشَبِّثٌ بيدِ أخته، ومسدسه في اليد الأخرى.

أحسَّ بضوءِ الكشَّاف يقترب منه، وصوتُ رصاصة ضلت طريقها إلى هدفها ترتطم بالحائط بجواره، فتوقف زياد واستدار ليُطلق عدة طلقاتٍ على رجلِ الجيش الذي سقط أرضًا وهو يصرخ في ألم، وعلى الفور ظهر جندي آخر كان يلحق به، ثم أطلق النار بغزارة في اللحظة التي كان الممر ينحني فيها باتجاه اليسار وزياد ينحني معه وهو يُمسك بيد أخته، فَضَلَّت معظمُ الطلقات طريقها إليه، ولكن واحدة اخترقت ذراعه واستقرت أخرى في كتفه الأيمن، فصرخ في ألم، وسقط المسدس من يده، وبعدها ظهر الجندي مُمْسِكًا بسلاحه وهو ينظر إلى زياد الغارق في دمائه، فقال:

- لقد سقطتما أخيرًا أيها الجُرْذَان، ستدفعان ثمن مقاومة الجيش وقتل صديقي!

حاول زياد أن يمد يده إلى المسدس بضعف، ولكن الجندي داس بحذائه الثقيل على يده ليصرخ زيادُ مُتألمًا، فأمسك الجندي بالمسدس ليضعه في حزامه وهو يقول مُتَشَفِّيًا:

- أنتما أعزلان من السلاح الآن!

كان مستمتعًا بخوفهما، وفجأة تناولت فريدة صخرةً حادة من الأرض وأطلقتها بقوة في وجه الجندي الذي صرخ في ألم وأصبعه يضغط على الزناد فتنطلق عدة

طلقات في الهواء، ثم اقترب من فريدة في غضب وركلها بقدمه وهو يصرخ:

- أيتها العاهرة!

ثم صاح بغضب أكبر:

- سأقتلك بيديّ العاريتين!

وهكذا أحاط عنق فريدة بأصابعه وهو يضغط بغلٍ، أحسَّت فريدة بالاختناقِ وهي تُكافح لاستنشاق الهواء، وفجأة جحظت عينا الجندي في ألم، وأصابعه تتراخى حول عنقها فسقطت أرضًا وهي تسعل وتشهق بقوة، ثم استدار الجندي فرأت مديةً مُنغرسة في ظهره، وزيادَ واقفًا على قدميه رغم جراح ذراعه وكتفه، أشْهَرَ الجُندي سلاحه وهو يقول:

- اللعنة عليك!

أدركت فريدة أن أخيها على وشك الموت، ولمحت مِقْبَضَ مسدس زياد بارزًا من حزام الجندي فمدت يدها وانتزعته منه، وألصقت فوهةَ المسدس بظهره وأطلقت النار عدة مرات، فانتفض الجندي وسقط أرضًا غارقًا في دماءه، ولكن فريدة استمرت في إطلاق النار بلا وعي حتى أصبح المسدس يطلق تكّات معدنية، ولم تَفِق من ذهولها حتى سمعت أخاها يتأوه في ضعف فرفعت فريدة عينيّها إليه وأدركت فجأة حالته الخطيرة، فألقت بالمسدس جانبًا وركضت ناحيته، لتمسك به قبل أن يسقط أرضًا. ساعدته كي يتحامل على كتفها، وسارت به في النفقِ المظلم؛ مرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن تجد نفسها في محطة مترو أخرى، فساعدت أخاها كي يصعد على الرصيف، كانت تلك المحطة مهجورة، وهكذا خرجا منها وفريدة تتلفت

حولها في هلعٍ بحثًا عن أي مساعدة لأخيها. كان زيادٌ يتركُ وراءه خطًا من الدماء على الثلجِ، وأحس بالضبابِ يُغَلِّفُ عقلَه، ووعيه ينسحبُ منه ببطءٍ، وفجأة سقط أرضًا دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة، فهزته فريدة وهي تقول:

- زياد؟ زياد؟

ثم أطلقت صرخة أخيرة مليئة بالخوف واللوعة:

- زيـــــاااااااد!

وشَقَّت صرختُها سكونَ الليلِ، وهي تجلس وحيدة بجانب جسد أخيها الغارق في الدماء.

الفصل الحادي عشر

استعاد زيادُ وعْيَه ببطء دون أن يفتح عينيه، سأل نفسه "أين أنا؟" ولكن سؤاله لم يتجاوز شفتيه، كان يشعر بإرهاقٍ شديدٍ، وصداعٍ مؤلمٍ ينبضُ في رأسه كمطرقة معدنية تهوي عليها بكل قوتها، أحسَّ بألمٍ شديدٍ ناحية جانبه الأيمن وخصوصًا كتفه وذراعه، فمَدَّ يده بحذرٍ ليتحسسهما وهو يفتحُ عينيه، فتبَيَّنَ له على ضوءٍ قادم من أحدِ المصابيح الكهربية أنهما مُحاطَان بالأربِطةِ والضَمَّادات، نَدَتْ عن شفتيه آهةُ ألمٍ خافِتة، ولكنها وصلت إلى أُذُنِي فريدة النائمة بإرهاقٍ على كرسي مُجاور للسرير الراقد عليه زياد، ففتحت عينيها وهي تقفز من موضعها وتقول بفرحة:

- لقد اسْتَعَدْتَ وَعْيَكَ أخيرًا.

نظر إليها زياد في حيرةٍ وهو يقول:

- ماذا حدث؟

قالت له فريدة وهي تجلس على طرف السرير بجواره:

- لقد أفْزَعْتَنِي عليكَ حقًا، بعد أن هربنا من محطة المترو فقدتَ أنتَ وعيك بسبب إصابتك، وقد خِفْتُ أن أفقدك، لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل بدونك!

فتَلَفَّتَ حوله وهو يسألها بحيرةٍ أشد:

- أين نحن؟

في تلك اللحظة دَلَفَ إلى الغرفةِ رجلٌ يبدو في منتصف العِقْدِ الخامسِ من عمره، وقد خَطَّ الشيبُ فوديه، يرتدي روبًا منزليًا فاخِرًا، ويُمْسِك بين أصابعه غِلْيُونًا مُشتعِلًا، ثم قال بعدما نفخَ الدخانَ الذي استنشقه من الغِلْيُون:

- لقد استيقظت إذن، لقد أقلقت أختك المسكينة عليك؟

سأله زياد بِتَوجُّسٍ:

- من أنت؟

فقالت له فريدة كي تُطَمْئِنَه:

- هذا هو من أنقذ حياتك.

فمَدَّ الرجلُ يده ليصافحه وهو يقول:

- الدكتور حسام، طبيب جراح سابق.

صافحه زياد وما يزال التساؤل والحيرة مرتسمين على وجهه، فقال له الدكتور:

- لحسن الحظ أنني سمعت صرخةَ أختك بعد خروجكما من محطةِ المترو، ولا

شك أن غيري قد سمعها، ولكن الفضول ثمنه كبير في تلك الآونة، لذا لم يتحرك أحدهم، ولكني رأيتكما من نافذتي الزجاجية، فسارعت ناحيتكما، ووجدتك مُصابًا، لقد اخترقت رصاصةٌ ذراعك كما استقرت أخرى في كتفك، ولحسن الحظ أن أيًا منهما لم تُصِب العظم، فساعدتني أختك على حملك بعدما أخبرتها بطبيعة مهنتي كطبيب، وأحضرناك إلى شقتي، وهكذا باستخدام بعض الأدواتِ البسيطة استطعتَ استخراج الرصاصةِ من كتفك وتطهير الجروح ببعضِ الكُحُول وربطُتُها بالضمَّادات، ولكنك ستحتاج إلى بعضِ الراحةِ كي تَنْدَمِلَ جروحك وتستطيع تحريك ذراعك بحريةٍ مُجددًا.

سأله زيادُ وهو ينظر ناحية النافذة الزجاجية المغلقة إلى الظُلمة بالخارج:

- كم مضى عليّ من الوقت وأنا فاقد الوعي؟

نظر الطبيب إلى ساعةٍ يدويةٍ ذات طِرازٍ قديم مُلْتَفَّة حول معصمه وقال:

- كِدت تُكْمِل أربعة وعشرين ساعة.

ثم أشار بمَبْسَمِ غِلْيُوْنِه ناحية فريدة وقال:

- لم تُغادر أختك موضعها منذ جئتما إلى هنا، حتى أنها نامت وهي جالسة على الكرسي بجوارك، لا شك أنها تُكِنّ لك حبًا عميقًا.

فنظر زياد ناحية أخته وهو يُدَاعِبُ شعرها بيده السليمة وقال:

- بالطبع فهي أختي الوحيدة، كما أنها أنقذت حياتي ونحن في أنفاقِ المترو.

فقالت فريدة بخجل:

- كما أنقذت أنت حياتي مرات عديدة.

أفرغ الدكتور غليونه من بقايا التبغ المحترق في مطفأة صغيرة ثم أخرج علبة تبغ من جيب روبه وبدأ يُعِيْد مَلء الغِلْيُون من جديد وهو يقول:

- لقد قَصَّت أختك عليّ قصتكما، وهي قصة مثيرة لا شك، كما أنها مُحزنة للغاية، لا أكاد أصدق أنكما وصلتما إلى هذا الحد.

تأمل زيادُ الغرفة المؤثثة بأثاثٍ جيد، والمصابيحَ المُضَاءَة بالكهرباء، وسأله:

- يبدو أنك تعيش حياة مرفهة.

ضحك الدكتور وهو يُشعِل غِلْيُونَه وقال:

- أجل، الحصول على الطعام والماء والكهرباء يعد رفاهية في تلك الأيام. في السابق كنت جراحًا مشهورًا، أمتلك في البنك مبلغًا ذا عدة أصفار، تزوجت مرة واحدة ثم ماتت زوجتي بعدها بأشهرٍ قليلة ولم أفكر في الزواج بعدها؛ أصبحت أقضي وقتي في غرفِ العمليات الجراحية، والاستمتاع بحياتي من حينٍ لآخر، وظننت أن حياتي ستستمر هكذا للأبد.

أخذ بضعةَ أنفاسٍ من غِلْيُونِه يستمد منها بعضَ الدفءِ ثم قال:

- بعدما حدثت تلك الكارثة سَخَّرتُ كل ثروتي كي أضمن لنفسي أفضل حياة مُمكنة في ظل تلك الكارثة، كما ترى أنا من أصحاب البطاقات الخاصة، كما يصلني كل ما أحتاج من طعامٍ وشرابٍ وكهرباءٍ وتبغٍ دون الحاجة لأن أخطو خطوة واحدة خارج شقتي أو أن أقف في تلك الطوابير المُهِيْنَة.

ساله زياد:

- ألن تعرضك مساعدتك لنا للمُسَاءَلة، ماذا لو أتى الجنودُ إلى هنا؟

قال الدكتور:

- لا تقلق، إنهم يعرفون جيدًا من أنا، ولن يفكروا في البحث عنكما هنا، كما أن الثلج المُتَساقِطُ قد تَكَفَّل بمحوِ أي أثرٍ للدماءِ قد يَقُودَ إليكما بلا شك، لا تقلقا، أنتما في أمان.

أحس زياد بالراحة لكلامه، ثم فجأة بدأ يشعر بمشاعر أخرى تتسلل إلى عقله، الجوعُ والعطشُ، فترجم عقله تلك المشاعر لكلمات على الفور، وقال:

- أنا جائع.

ضرب حسام جبهته بكفه وهو يقول:

- ما أغباني، أنت فاقد الوعي منذ يومٍ كامل تقريبًا، سَأُعِد لكما شيئًا تتناولانه على الفور.

غادر الدكتور حسام الغرفة، بينما التفت زيادُ لفريدة وهو يقول:

- هل تعرفي أي شيء عن جلال أو الجدة بخيتة؟

هزَّت رأسها بأسفٍ وهي تقول:

- لا، لا شيء.

فأغمض زيادُ عينيه وهو يُرِيح رأسَه على الوسادةِ وقال:

- أتمنى أن يكونا قد استطاعا الهرب في الوقت المناسب، أتمنى أنهما الآن في محطة مترو أخرى، ينعمون بالدفءِ والأمانِ وحساءِ الفطر.

شاركته فريدة مشاعره وقالت مُشْفِقَة بدورها:

- أتمنى أن يكونا بخير.

لم يتبادلا كلمةً أخرى حتى عاد الدكتور حسام ببعض أطباق الطعام الساخنة، وقال:

- من فوائد وجود الكهرباء هو أنك تستطيع تسخين الطعام بالمايكروويف.

تسللت رائحةُ الطعامِ الشهية إلى أنفِ زياد فسال لُعَابُه وقرقرت معدته، فساعدته أخته على الاعتدال في فراشه، وشرعا يتناولان الطعام، بينما جلس الدكتور حسام في ركن الغرفة يتطلع من النافذة إلى الثلجِ المُتساقِط في الظلمة، وهو يُطلق نفثاتَ الدخانِ من غِلْيُونِه.

*****

كانت فريدة نائمة في الفراشِ بجوار زياد، الذي لم يشعر برغبةٍ في النعاسِ ربما بسبب بقائه نائمًا لما يزيد عن يومٍ، كما شعر بالتَمَلْمُلِ من رقدته، فتحامل على نفسه ونهض من الفراشِ، وسارَ ناحيةَ الرُدهة المُضيئة، ليجد الدكتور حسام جالسًا أمام النافذةِ الزجاجيةِ المُغلقة، ويمسك في يده بكأسٍ زجاجي، به سائلٌ عسلي اللون، يتناول منه رشفةً بين الحين والآخر. تنحنح زيادُ بصوتٍ خافتٍ، فانتبه حسام لوجوده وقال:

- زياد، لما قمت من فراشِك؟ أنت تحتاجُ للراحةِ.

قال زياد:

- تعبت من الرقادِ، وأردت تحريك جسدي قليلًا.

أشار حسام إلى مقعدٍ آخر بجواره وقال:

- تعال اجلس معي.

جلس زياد بجواره وهو يضع يده المُحاطة بالضمَّادات بحرصٍ على مسندِ الكرسي، أشار حسامُ إلى زجاجةٍ بجواره وسأل زياد:

- هل ترغب في بعض الشراب؟

نظر زياد إلى الزجاجة ذات المظهر الغريب، وأدرك أنه مشروبٌ كحولي، فهز رأسه وقال:

- لا أشرب تلك الأشياء.

ابتسم حسام وقال:

- أعرف أنها غير مُحَبَّذة، ولكنها تجعل عقلي يتوقف قليلًا عن التفكير في الكارثة، كما تبعثُ بعضَ الدفءِ في الجسد.

ثم قال له:

- سأحُضِرُ لك شيئًا آخر.

توجه حسام ناحية المطبخ، وعاد بعد دقائق بكوبٍ من الشاي الساخن، تناوله زياد منه بيده السليمة، وهو يشعر بالحرارة المُشِعَّة من الكوب الزجاجي فقال له:

- لم أرَ تلك الأشياء منذ اندلاع الحرب، كيف تحصل عليها؟

أجابه حسام وهو يَصُبُّ لنفسه كأسًا آخر:

- كما أخبرتك من قبل، أنا أُنفِق كل ثروتي كي أحصل على أفضلِ قدرٍ ممكن من الرفاهية في تلك الظروف، كما أن علاقاتي جيدة ببعضِ السُلطاتِ داخل الجيش.

فكر زياد بعمق وقال:

- لعلك تستطيع مساعدتنا في الوصولِ إلى أمي.

عقد حسام حاجبيه وقال:

- نعم أخبرتني أختك شيئًا بشأن بحثكما عن أمكما، ولكن لم تخبرني بالتفاصيل.

أخذ زيادُ رشفةً من الشاي الساخِن، مُستمتعًا بالدفء الذي يَبُثه في أوصاله، ثم أخذ يحكي لحسام كل شيء عن أمه، وكيف انقطعت أخبارها منذ اليومِ الأول للحرب، وحسام يستمع إليه باهتمام عاقدًا حاجبيه، لا يُعَلِّق سوى بهمهمةٍ أو بإيماءةٍ من رأسه، حتى انتهى زياد من حكايته، فقال الدكتور حسام مُفكرًا:

- كونها دكتورة في الهندسةِ الوراثيةِ كما أخبرتني يجعل دورها مُهمًا للغاية في تلك الظروف، سيحتاج البشر والحيوانات والنباتات لمعجزة بيولوجية كي يستطيعوا النجاة من تلك الكارثة.

قال زياد بوجوم:

- لا أعرف! كل ما أرغب فيه هو الوصول إلى أمي.

رَبَتَ حسامُ على ظهره وقال:

- لا تبتئِس، سأُساعِدك بقدر استطاعتي، والآن عليك الحصول على بعض الراحة، فأنت لم تتعافَ تمامًا بعد.

أومأ له زيادُ برأسه، وتوجه ناحية غرفته كي يحصل على قسطٍ من النوم، أما حسام فقد حمل الكأسَ والكوبَ الفارغين إلى المطبخ، ثم توجه إلى غرفته، بجانب سريره كان هناك جرامافون عتيق يزيد عمره عن الثمانين عامًا مُستقرًا على مِنضدةٍ خشبيةٍ صغيرة، اختار من بين مجموعة أسطوانات ـ مُغَلَّفة كل واحدة منها بغلافٍ ورقي سميك ـ أسطوانة السيمفونية السابعة لبيتهوفن، وضعها في الجرامافون ثم خفض الإبرة المعدنية لتدور الأسطوانة وتنساب الموسيقى الرقيقة في الغرفة.

كلفه هذا الجرامافون ثروة منذ بضعة سنوات، وما زال يحتفظ به حتى هذا اليوم. في كل مرة يشغل فيها الجرامافون يتخيل أنها ستكون المرة الأخيرة التي يستمع فيها إلى الموسيقى، كم هم حمقى هؤلاء البشر كي يفعلوا هذا بأنفسهم، وبكوكبهم، يا لهم من بؤساء تعساء!

تذكر الفتى والفتاة النائمين في الغرفة الأخرى، لأول مرة منذ زمنٍ بعيد يحظى

بصحبة، منذ وفاة زوجته وحب حياته دون أن يُرزق منها بأطفال، لذا أحس الجد زياد وفريدة إحساسًا أبويًا لم يحسه طيلة عمره، ولكن هل كان سيرغب أن يكون لديه أسرة في تلك الظروف؟ لا يعرف، يكفيه أن يعاني وحده، أو هكذا قال لنفسه.

بعد عدةِ أيامٍ جاءته مجموعةٌ من الجنود بالطعام والشراب، فسألهم عن الدكتورة سمية علم الدين، لم يكن لديهم معلومات عنها، إلا أنهم وعدوه بالبحثِ والسؤال، فأوصاهم أن يُولُّوا هذا الأمر أهميةً خاصة، وكل شيءٍ بمقابلٍ مُناسب بالطبع، قال جملته الأخيرة بنبرةٍ خاصة فهمها الجنود فالتمعت أعْيُنُهُم وهم يَعِدُونَه أن الأمرَ سيكون له أولويتهم القُصوى.

بعد استيقاظ زياد وفريدة أخبرهما حسام بما حدث، فأحسَّا بفرحةٍ عارمة، وابتسم حسام لذلك، ثم أعدَّ لهما الإفطار، كان ذراع زياد قد استعاد عافيته، وبدأ يحركه بحرية، وإن كان أثر الجراح ما يزال موجودًا، إلا أن فكرة أن يريا أمهما أنْسَتْهُ كلَ ألمٍ.

كان حسام يقضي أيامه بإعداد الطعام للفتاة، والاهتمام بجرح زياد، رعايته لهما شغلت وقته، بشكل جعله أقل بؤسًا، علم زياد لعبة الشطرنج بعدما عرف منه أنه لم يلعبها طيلة حياته، فكانا يمضيان عدة ساعات في تلك اللعبة، أحيانا تشاركهما فريدة اللعب، ولكنها كانت تَمَلُّ سريعًا فتكتفي بالمُشاهدة.

مضت الأيامُ دون ردٍ من الجنودِ مما أصاب زياد وفريدة بالقلقِ، ولكن حسام طمأنهما وقال:

- لا تقلقا سيكون كل شيء على ما يرام بإذن الله.

قال زياد وفريدة بصوتٍ واحد:

- بإذن الله.

هذا يَعُدَّان الأيامَ حتى عاد الجنودُ بأخبارٍ هامةٍ، الدكتورة سمية تعمل في أحد مراكزِ الأبحاثِ التابعةِ لوزارة الدفاع، فسألهم حسام عن إمكانية إيصال ابنيها زياد وفريدة إليها، لم يكن الأمرُ يُشَكِّلُ مُعْضِلَةً كبيرةً للجنودِ، كما أن حسام بالتأكيد سيدفع المُقابل المناسب، وهكذا استعد زيادُ وفريدة للمغادرة، وتأكد زيادُ من وجودِ كل شيء يحتاجه في حقيبته.

أحسَّ حسام بحزنٍ كبير وهو يودعهما، لقد اعتاد على وجودهما معه، حتى أن فكرة أن يعود للعيش وحيدًا أصبحت ثقيلة على قلبه، ولكن لا مفر من ذلك، لا يستطيع أن يطلب منهما البقاء معه، فتمالك نفسه، وأوصى الجنودَ بهما خيرًا، فوعدوه أنهم سيهتمون بهما. غادره الجميع وحلَّ عليه الصمتُ من جديد، فعاد إلى شرابه وغِلْيُونه وهو يستمع إلى موسيقاه، مُحاولًا اقناع نفسه أن كل شيء سيصبح كما اعتاد عليه في السابق، ولكنه أدرك أن شيئًا ما تغير داخل قلبه، ولن يعود كما كان أبدًا.

الفصل الثاني عشر

لم يُصَدِّق زيادُ نفسَه وهو يجلس داخل مُدَرَّعة الجيش بجوار أخته، في مُنْعَطَفٍ غير متوقع للأحداث. نظر من نافذة المَدرَّعة إلى شوارعِ القاهرةِ، المُظلِمة، الباردة، والنوافذ القليلة المُضيئة، والأوجه الفضولية التي تُطِلّ عليهم من حينٍ لآخر، أحيانًا تُوقِفُ المدرعةَ بعضُ حواجز التفتيش لفحصِ بعض الأوراق، قبل أن يسْمَحُوا لها بالمرور.

أدرك زيادُ فجأة أن المُدرعة تُغادِر وسط البلد، فتعجب من ذلك، وكاد أن يسأل الضابط الأكبر رتبة ـ الجالس بجوار السائق ـ "إلى أين تأخذوننا؟"، ولكن صوت ضوضاء مفاجِئة قطع أفكارَه، فنظر من نافذة المُدرعة ليرى حَشْدًا كبيرًا من البشرِ مُشتبِكين مع جنود من الجيش، يقذفونهم بالحجارة والزجاج، إنهم هؤلاء الغاضبون الناقِمُون على الحكومة لتخليها عنهم، بدا العديدُ منهم مُرَحِّبًا بالموتِ بشكلٍ غير متوقع، ربما اليأس المُطْلَق هو ما يدفعهم لإلقاء أنفسهم أمام النار رغبةً في الخلاص من هذا العالم المُظلِم القاسي.

الأمرُ المُخيف هو عندما أدرك زياد أن الجيشَ يواجه المُتَمَرِّدِين بالرصاص الحي، لم يكن الأمر مجرد احتجاج، بل مذبحة دامية، وفجأة بدأ بعض المتمردين بإلقاء زجاجاتٍ مشتعلةٍ ناحية جنودِ الجيش فانفجرت وتناثرت منها مادة مُشتعلة أمْسَكَت بالجنود الذين صرخوا في ألمٍ وهم يحترقون أحياء، أدرك زياد أنها قنابل مولوتوف، أما فريدة فقد صرخت في فزع وهي ترى هذا المشهد.

في تلك اللحظة كان سائق المدرعة يدير المقود رغبةً في الابتعاد عن تلك الفوضى، وازداد الأمرُ سوءً بعدما سقطت بعض الأسلحة النارية في أيدي المحتجين الغاضبين، وارتطمت بعض الطلقات النارية بالمدرعة المصفحة ـ لحسن الحظ ـ فوضعت فريدة يديها على أذنيها وهي تصرخ. احتضنها زياد محاولًا تهدئتها، والجنود الذين يشاركونهم المدرعة يَتَلَفَّتُون حولهم في خوفٍ وفزعٍ. أمسك أحدُ الجنود بسلاحه وتوجه ناحية نافذةٍ صغيرةٍ بالمدرعة كي يَتَحيَّن فرصةً لإطلاقِ النار، ولكن قائده صرخ فيه يمنعه من فعل ذلك، فإثارة غضب المتمردين أكثر من ذلك ليست في صالحهم، ثم أمر السائق أن يتحرك بأقصى سرعة، متجهًا ناحية مصر الجديدة، حيث تقع أغلبُ مُنْشَئَات الجيش.

كان عدد المتمردين كبيرًا للغاية، وتساءل زيادُ في قرارةِ نفسه إن كانوا قد نَظَّمُوا أنفسهم كي يتحركوا سويًا بِمثلِ هذا العدد، أم أن بعضهم تحرك ثم انضم لهم الآخرون لاحقًا بدافع من اليأسِ والغضبِ والحقدِ على هؤلاء المُحَصَّنِين وراء الأسوار بعيدًا عن الثلجِ والظلامِ، لم يجد إجابةً لسؤاله، ولكن ما هو متأكد منه أن الطرفين ـ الجنود والمتمردين ـ كليهما ضحية لتلك الظروف العَبَثِيَّة، كِلا القتلى من الجانبين لا يُدْرِكُون لِمَ قُتِلوا، ولا يدري من يُمْسِك بالسلاح ولِمَ يَقْتُل، مُجرد فوضى

عارمة جارفة، سيمفونية كئيبة تعزفها الحربُ على أشلاءِ البشرية. وجد نفسَه وهو يحتضن أخته ويتمتم بكل ما يعرفه من أدعية وأذكار وآيات قرآنية، داعيًا الله أن يُنجِّيه وأختَه من تلك المعركة المُخِيفَة الدائِرة حولهما.

بعد مرور بعض الوقت هدأت الضوضاء من حولهم، لا رصاص لا قنابل لا صرخات مخيفة لمن يُحرَقون أحياء، لم يكن هناك سوى صوت المدرعةِ تَشُقُّ الظُلمة والسكون مُتجهة ناحية مصر الجديدة، كانت الشوارع أكثرَ تَحصِينًا من وسط البلد، ودوريات الجيشِ تقطع الشوارعَ والميادين، ونِقاط التفتيش عند كل ناصية، فأدرك زيادُ أنه يقترب من مكانٍ أكثر أهمية بكثيرٍ من وسط البلد. سُرعان ما وصلوا إلى سور دائري يُحيطُ بأكثر مناطق الجيشِ أهمية، تعلوه كشّافاتٍ ضخمة تُحيلُ الظلامَ نهارًا، والجنودُ على أبراجِ المُراقبة في كل ركن، أفْسَحَ الجنودُ الطريقَ للمُدرَّعة كي تَعبُر من بوابةٍ ضخمةٍ، ليجدوا أنفسهم في ساحةٍ مُتَّسِعة. أوقفَ السائِقُ المُدرعة، وأمر الضابطُ الأكبرُ رتبةً زيادَ وفريدةَ أن يتبعاه، فسارا وراءه لا يعرفان إلى أين يأخذهما، هل يأخذهما إلى أمهما؟ لم يستطع أحدهما أن يَنْطِق بالسؤال خِشْيَة أن تكون الإجابة عكس توقعهما، حتى وصلا إلى مكتبٍ مُغلَقٍ فتحه الضابطُ وأدخلهما وهو يقول:

- انتظرا هنا.

ولم يُمْهِلْهُمَا فرصةً كي يسألانه عن شيء، بل أغلق البابَ وراءهما ليبقيا وحدهما في ضوءِ الغُرفة الأصفر الكئيب، كانت الدموعُ متحجرةً في عينيّ فريدة وهي تُحَمْلِقُ في المجهول، أما زياد فتعلقت عيناه بالباب وهو ينتظر، وينتظر. بعد دقائق بَدَت كالدهرِ، رأى زيادُ مِقْبَضَ البابِ يتحرك، والباب ينفتح، وشخصًا

ما يخطو داخل الغرفة، وعلى الضوءِ الأصفرِ تَبَيَّنَ زيادُ ملامحَ القادم، إنها أمه، تنظر ناحيتهما بذهولٍ غير مصدقة، قبل أن تركض لتأخذهما في حضنها وتبكي وهي تُقَبِّل رأسيهما ووجهيهما كطفلةٍ صغيرةٍ، أحسَّت فريدة بإحساسٍ غريب، وهي تحتضن أمها، إحساس لم تشعر به منذ فترة طويلة، أحسَّت بالأمان؛ لقد انتهى كل شيء، أخيرًا. أما زياد فلم يعرف أي شعورٍ يُغَالب نفسه أكثر، فرحه للقاء أمه أخيرًا، أم غضبه لأنها تركتهما وراءها؟ بالتأكيد هناك تفسير لكل ذلك!

*****

عادت الدكتورة سمية بذاكرتها إلى اليومِ الذي جاءها فيه استدعاءُ العاصمة، كانت جالسة خلف مكتبها تُرتِّب بعضَ الأوراقِ حين دخل عليها بعضُ الأشخاصِ ذوي الرُتَب الرسمية يُطلبون منها أن تأتي معهم، ووجدت سيارةً حكومية خاصة تنتظرها أمام الجامعة لِتقِلها إلى القاهرة، لم يكن أمامها خيار، لم تَحْظَ حتى بفرصةٍ لتوديع أبنائها، كل ما استطاعت فعله هو محادثة زياد لتخبره بما حدث، ومحادثت جارتهم للاهتمام بأبنائها، وعندما حاولت الاتصالات بزوجها كانت شبكات الاتصال قد انقطعت بالفعل.

كان الشتاء النووي يَلُوحُ في الأفق، الانفجارُ النووي سيؤدي إلى ارتفاع الغبار والدخان إلى طبقات الجو العُليا مما سيحجب أشعةَ الشمسِ عن الأرض، ما سيحدث هو أن ظلامًا دامسًا سَيُغَلِّف الأرضَ، وتنخفض درجةُ الحرارة بالتدريج، مما يعني أن الأرض على وشك الدخول في عصرٍ جليدي جديد. بدون شمس أو حرارة سيواجه البشرُ والحيوانات والنباتات تحديًا صعبًا للنجاة في تلك البيئة القاسية، تحدي قد لا يستطيعون تجاوزه، إلا باستخدام كل ما في أيدي البشر من تكنولوجيا. الكارثة الواقعة لا مفر منها، والحكومة بحاجة لخيرة عقول مصر من أجل تجاوزها، وهنا جاء دور العُلماء؛ ومنهم الدكتورة سمية علم الدين.

كانت الأبحاثُ تتم في سِرِّيةٍ منذ فترةٍ طويلةٍ لجعل النباتات تنمو في درجات الحرارة المُنخفِضة والظلام، كما استُخدِمت الهندسةُ الوراثية لتعديل الخريطة الجينية للعديدِ من الحيوانات كي تتكيف مع الوضع الجديد، كان الأمرُ يشبه سفينة نوحٍ جديدة، لا يكاد العلماء يحظون بفرصةٍ للنوم في ظِلِ حركتهم ما بين المُختبرات والمعامل والصَّوبَات؛ ورغم أن الطاقة النووية هي التي أدت إلى تلك الكارثة المُخِيفة، إلا

أن الطاقة النووية هي ما أعطتهم بصيصَ أملٍ أيضًا للنجاة، فالطاقة النووية المُخزّنة في خلايا طاقة صغيرة هي التي تسمح لتلك المختبرات والصَّوبات بالعمل، ولكن لا أحد يعرف كم سيستمر الشتاء النووي، وهل سيكفي ما يفعلونه لنجاة الجنس البشري أم لا؟ رغم تأكدهم من أن كلَ دولةٍ تبذلُ قُصَارى جهدها بالتأكيد، إلا أن انقطاع كل وسائلِ الاتصال المُمْكِنة جعل كل دولة في عُزلةٍ تامةٍ، في محاولة للنجاة بطريقتها الخاصة.

الحقيقة القاسية التي يواجهونها هي أن الموارد قليلة ولا تكفي الجميع، يجب ترك البعض وراءهم، بل الواقع هو أن عدد قليل سيبقى، والنسبة الأكبر سَتَهْلَك لا مَحَالَة. كان العلماءُ بالداخل يجهلون ما يحدث بالخارج، غير مسموح لهم بمغادرة ذلك النِطاق التابع لوزارة الدفاع، عليهم فقط العمل بكل طاقتهم كي ينجوا، وينجو معهم من يستطيعون حمله على الفُلْكِ.

كانت سمية تشعر بالخوفِ والقلقِ طيلة الوقت على زوجها وأبنائها، وحاولت أكثر من مرة أن تُقْنِعَ أحدًا من قادةِ الجيشِ أن يُرْسِلَ في طلبهم، ولكن ما تسمعه دومًا هو أن الطرق بين العاصمة والصعيد مُغلقة بفعل الثلج والفوضى التي تلت الكارثة، إلا أنها استمرت في الإلحاح حتى تم إرسال بعض الجنود لجلبِهم، وكانت الإجابة أن المنزلَ خالٍ إلا من جُثَّتين، ولا أثر للأب أو الابنين، ماذا حدث؟ سألت سمية نفسها، كان القلق والحيرة يأكلان قلبها، حتى استسلمت في النهاية إلى أن مصيرهما مجهول، واستغرقت في العمل كي تنسى مشاعر الألم والحزن والحيرة.

مرَّت الأيامُ والشهور، وسمية مُستغرقة في العمل بكل جوارحها، تقضي وقتها ما بين المعاملِ والمختبراتِ والكتبِ والأوراقِ البحثية، تحاول أن تنسى، حتى أحست

أنها قد تحولت إلى آلةٍ للعمل، ولم يُزعِجها ذلك، لم يَعُد هنالك شيءٌ يزعجها.

لم تصدق سمية أذنيها عندما أخبرها أحدَ الجنودِ أن هناك فتى وفتاة يَزْعُمان أنهما ابنيها يرغبان في رؤيتها، ألقت ما بيديها وركضت باتجاه المكتب الذي دلها عليه الجندي، وبالفعل رأتهما هناك، شيء ما تغير بملامحهما، ظلالًا كئيبة تُطِلُ من عينيهما، بديا أكثر نُضجًا منذ آخر مرة رأتهما والتي بدت كأنها كانت منذ دهرٍ مضى، ماذا رأيتما يا فلذتي كبدي وما الذي مَرَرْتُمَا به حتى وصلتما إلى هنا؟

تأكدت أولًا من تناولهما الطعام والشراب، وتبديل ملابسهما بملابسٍ ثقيلةٍ نظيفة، واعتنت بهما تمام الاعتناء، ثم جلست تستمع إلى حكايتهما، وما أن وصل زياد إلى الجزء الخاص بمقتل أبيه، حتى انخرطت سمية في بكاءٍ حار، ثم استمعت إلى الأهوال الأخرى التي مرا بها أثناء رحلتهما إلى القاهرة، أَكَلةُ البشر، وحادثة المترو، وإصابة زياد، آه يا مهجتيَّ قلبي! ماذا جنيتما في هذا العالم كي تلقيا هذا الجحيم؟ ضمتهما إلى صدرها وقالت:

- لا تخافا، أنتما بأمانٍ، لن يَمَسَّ أحدٌ شعرةً من رأسيكما بعد اليوم.

وفي هذا اليوم، نام زياد وفريدة لأول مرة في حضن أمهما.

*****

استقر زيادُ وفريدة مع أمهما في تلك المنطقة المُحَصَّنةِ من مصر الجديدة التابعة للجيش، حيث يتوفر الطعامُ والشرابُ والكهرباءُ، واعتاد زيادُ على الذهابِ مع أمه إلى المعامل والمُختبرات؛ كي يعرف ما الذي يجري بها. أثار إعجابه ما يبذلونه من جهدٍ للحفاظِ على أنواعِ الحياةِ المُختلِفة، ولكنه كان يدرك أن هذا سَيَصُبُّ في مصلحةِ قِلَّة مُختارة، تَذَكَّر هؤلاء الذين يُعانون البرد والجوع والظلام بالخارج، هؤلاء الذين يَحْيُونَ بالكاد، يختبئون أسفلَ الأرضِ بحثًا عن الدفءِ والأمنِ، أو يُخاطرون بحياتهم للظفر بما يُبْقِيهم على قيدِ الحياة بالكاد، تذَكَّر الحشودَ الغاضبة وهي تُواجه الجيش، هؤلاء الذين سقطوا من الجانبين بطلقاتِ الرصاص أو دَهَسَتْهُم عجلاتُ المُدرعاتِ أو أحرقتهم نيران قنابل المولوتوف أحياء.

كان إحساسه بالدفءِ والشبعِ يجعله يشعر بالذنب تجاه هؤلاء الذين يواجهون الحياة القاسية بالخارج، حاول أن يُقنع نفسَه أن أفكاره غير منطقية وأنه غير مسؤول عن مصير أحدٍ، ولكنه لم يَقْدِر، تَذَكَّر أبيه، وجارهم عماد، وأبانوب، وجلال، والجدة بخيتة، والدكتور حسام، خلال رحلته قابل العديد من الأهوال، ونَجَى من العديدِ من المخاطر، والتقى بالأصدقاء والأعداء، ولكنه في كل لحظةٍ كان يشعر أنه سيد مصيره، الآن يجلس وراء الأسوار حيث الدفء والأمان منتظرًا مصيره المجهول، أحسَّ أنه في الجانب الخطأ من المعادلة، في جانب القوي الذي يقهر الضعيف؛ وأحسَّ بالضيقِ والاختناقِ وتلك الأفكار تَعْتَمِلُ في صدره.

تَذَكَّر ما أخبره به جلال عن معسكر الصيد في شمال الدلتا، الملاذ، تمنى لو كان هناك، سيكون حُرًّا رغم الخطر، سيواجه قدره، سيعيش كغيره ممن يحاولون البقاء، وسيمد يَدَ العونِ لمن يحتاج، بَدَت له الفكرة رومانسية حالمة، رغم إدراكه مدى

صعوبة العيش بالخارج، وضآلة احتمالات النجاة، ولكنه كان يُفَضِّل ذلك عن العيش في هذا السجن الخانق.

لم تتجاوز تلك الأفكار عقله، ولم يستطع أن يضعها موضع التنفيذ، اكتفى بتمْضِية وقته بالتجول في المكان، أو الجلوس وحده في غرفته بصحبة هاتفه الذي أعاد شحنه مجددًا، فيضع السماعات في أذنيه مستمعًا إلى بعض الأغاني، ناظرًا عبر زجاج النافذة المُغلقة إلى الأفق المظلم البارد، فتأخذه تلك الأغاني في رحلة عبر أزمنة وأمكنة مختلفة، لا يزورها إلا بعقله.

في أحد الأيام أصابه الفزعُ وهو ينظر نحو الأفق، لم يكن مُظلمًا هذه المرة، بل مُضيئًا ومُشْتَعِلًا، حريقًا هائلًا يتبدى أمام عينيه، وألسنةُ لهبٍ مُرتفعة تتراقص في رقصةٍ مرعبة ومخيفة، أدرك بعدها أن حركة التمرد والفوضى قد امتدت لقطاعٍ كبيرٍ من القاهرة، لقد أصاب الناسَ الجنونُ وهم يحرقون كل ما يرون في طريقهم، بحثًا عن الضوء والدفء، أو انتقامًا من هؤلاء الذين يقبعون في الدفء والأمان. على الفور تحرك الجيشُ لِرَدْعِ المُتمردين، وتردد طيلة الليل في الأفق صدى صوت طلقات النيران وانفجار المدافع، وفي صباح اليوم التالي تحوَّل كلُ شيءٍ إلى رمادٍ، وأشلاء.

أصيب زيادُ بالوجومِ والاكتئاب وجلس وحده في ركن الغرفة يضم ركبتيه إلى صدره واضعًا السماعات في أذنيه صامتًا لا يُخاطب أحدًا، وأحسَّت أمه بغيابه فبحثت عنه حتى وجدته في غرفته على تلك الحالة فسألته بقلق:

- ماذا بك يا بني؟

قال زياد وهو يُحَمْلِقُ في أرضِ الغرفة:

- لِمَ يحيا البعضُ هنا في دفءٍ وشبعٍ وأمن، بينما الآخرون بالخارج يواجهون البرد والجوع والموت؟ لِمَ لا يحْظَىَ الجميع بفرصٍ متساوية للنجاة؟

مَسَحَت أمه على شعره وقالت:

- لأن الموارد لا تكفي الجميع، لو فعلنا ما تقول لهدَّدْنَا الجنسَ البشري كله بالفناء، يجب أن ينجو البعض كي يستمر الجنس البشري في مُهمته لإعمار الأرض بعد انتهاء الشتاء النووي.

تسلل بعض الغضب لنبراته وهو يقول:

- ومَن مِن حقه أن يقرر من ينجو ومن يهلك؟ الجيش؟!

أحسَّت أمه بالحيرة ولم تعرف بما تجيب، فأكمل زياد وحِدَّة صوته تتزايد:

- هل تظنين أن هؤلاء الغاضبين بالخارج سيتوقفون عن المُحاولة، كلما قُتِل منهم واحدٌ سيبرز عشرةٌ ليأخذوا مكانه، إنهم يُدرِكون أن موتَهم قادمٌ لا مَحالة، لديهم يقين بالهلاك ولا يرغبون في الرحيل وحدهم، آجلًا أو عاجلًا ستتحطم كلُ الأسوار أمام تلك الأمواج الهادِرة الغاضبة، وكل ما تغمره تلك الأمواج سيتحول إلى أشلاءٍ وأطلال.

تفاجأت سمية من كلمات ابنها، لقد بدت كنبوءة قادمة من مستقبلٍ مُخيفٍ مُظلم، فتهاوت على أحد المقاعد ووضعت وجهها بين كفيّها، ثم رفعت رأسها أخيرًا وقالت والدموع تنساب من عينيها:

- وماذا نفعل؟ ما البديل؟ أن نستسلم ونهلك جميعًا ونشاهد الجنس البشري وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة؟

ضرب زيادُ الحائطَ بقبضته وهو يقول:

- لم أعد أطيق هذا المكان، أنا لا أنتمي له، لا أرغب في أن أكون ضمن القِلَّة التي تحصل على كل شيء من فوق جثث الضُعفاء، هذا الإحساس يُصيبُني بالاختناق.

قالت الأم باكية مُدافعة عن نفسها:

- أنا هنا أقوم بدوري، مُجرد مسمار في الفُلْكِ الذي يحمل بقايا الحياة على هذه الأرض، وسأظل أقوم بدوري هذا حتى لو اجتاحتني تلك الأمواج كما تقول!

أحسَّ زيادُ بشيءٍ من تأنيب الضمير، من نبرته الحادة مع أمه، فتمالك أعصابه قليلًا ثم قال:

- أرجوكِ، اتركيني وحدي قليلًا، سأكون بخير.

قالت أمه:

- حسنًا يا بني، ولكن أريدك أن تعرف شيئًا واحدًا، أنت وأختك كل شيء تبقى لي في هذه الحياة، ولا أتخيل أن أعيش لحظةً واحدةً دونكما.

ثم قَبَّلت رأسَه، وغادرت الغرفة، وعاد زياد ليغرق مُجَدَّدًا في ظلامِ أفكاره.

الفصل الثالث عشر

وقف زيادُ وراء الزجاج يُراقب النيرانَ المُشتعلة في الأفق، وضوؤها الباهت يصل إليه راسمًا جسده في صورة ظلٍ أسود، يُلقِي بنظره على العالم وهو يَلْفَظ أنفاسه الأخيرة، فقد بدا أنه لا نهاية لتلك الفوضى والجنون؛ أصبح مشهد الحرائق وصوت الرصاص والمدافع مُعْتَادًا بالنسبة له، وفي كل يوم تقترب النيرانُ من مَقَرِ الأبحاثِ التابع للجيش، وتصل الأصواتُ إلى مَسْمَعَيْه أعلى من ذي قبل، كقَدَرٍ محتوم يقترب ببطءٍ وثبات. إلى متى سيستطيع الجيش مواجهة تلك الجحافل الغاضبة؟ سأل زيادُ نفسه هذا السؤال وهو يشعر بالخوف من المصير المُرْتَقب.

ذات ليلة استيقظ زياد على صوتِ انفجارٍ قريبٍ للغاية، فقفز من فراشه مُنْتَفِضًا في فزع، واتجه ناحية النافذة ليعرف ما الذي يجري، فرأى على ضوءِ الكشَّافاتِ جُزءًا مُتَهاوِيًا من السور، والجنود مُشتَبِكين مع مجموعةٍ من المُقْتَحِمين الغاضبين، فاتجه بسرعة ناحية باب غرفته، ليطمئن على أمه وأخته الموجودتين بالغرفة المُجاورة، وبمجرد أن خرج رآهما يُطِلان من باب غرفتهما، وفريدة تسأل في خوف:

- ماذا يحدث؟

فقال بتوتر:

- إنهم هنا!

سألته سمية:

- من؟

قال زياد:

- المتمردون.

كان الجيش يواجه المُقْتَحِمين بكل أسلحته، ولكن عددهم بدا أن لا نهاية له، قالت سمية لابنيها:

- تعاليا معي.

سألها زياد:

- إلى أين تذهبين؟

قالت:

- يجب أن ننقذ جهودنا كيلا تضيع.

تَبِعَها زياد وفريدة وهي تقطع الممراتِ مُتَوجِّهةً ناحية المُختبرات حيث توضع عينات من النباتات والحيوانات المُعَدَّلة جِينيًّا، استقبلهم هناك مجموعةٌ أخرى من العلماء يرتسم على ملامحهم الخوفُ، فصاحت سمية في أحدهم:

- هل بدأتم في تنفيذ إجراءات الطوارئ؟

انتفض الرجلُ من ذهوله ثم قال:

- سنبدأ على الفور.

كان هناك عدد من أجهزة الكمبيوتر، يعمل عليها مجموعةٌ من العلماء، كان صفير الإنذار يَدْوِي في كلِ مكانٍ، وأضواءٌ حمراءٌ تُضِيءُ وتَنْطَفِئ بشكلٍ تَحذِيري، وبعد أن أدخل العلماءُ المعلوماتَ المطلوبة على الكمبيوتر بدأت أبوابٌ حديدية تهبِط أمام كل الأبواب والنوافذ، أصبح المكان مُحَصَّنًا لا يمكن الولوج إليه أو الخروج منه. كانت أصوات الطلقات والانفجارات وصرخات الخوف والغضب تصل إليهم. ضَمَّت سمية ابنيها إلى صدرها، وهي تردد الأذكار والأدعية، وبقية العلماء بعضهم يجلس في وجومٍ وصمتٍ، والبعض الآخر يعمل على أجهزة الكمبيوتر.

لم يبدُ أن هناك نهاية لتلك الليلة المُخِيفة، والوقتُ يمر دون أن ينقطع صوتُ طلقاتِ النار أو يتردد صدى انفجارٍ بين الحينِ والآخر، بينما يعمل العلماءُ جاهدين للسيطرة على الموقفِ والحفاظ على المُخْتَبَرات، وفجأة قال عالمٌ شابٌ والبيانات تتراص أمام عينيه وتنعكس على نظارته الطبية:

- كارثة!

سألته سمية بقلق:

- ما الأمر يا رشاد؟

قال لها:

- المُوَلِّدُ الذي يعمل بخليةِ الطاقة لا يتحمل هذا النشاط الزائد!

قالت بخوف:

- هل تعني أنه قد ...

اختنقت الكلماتُ في حلقها فأكمل جملتها:

- قد ينفجر، نعم.

قال زيادُ الذي لا يفهم ما يدور حوله:

- ما معنى هذا؟

قال رشادُ وهو يَعْدِلُ نظارته الطبية على أنفه بسبابته:

- تلك الخلايا تقوم بتخزين الطاقة النووية لاستخدامها بشكل سِلْمِي، وهي تستطيع حفظ كميات كبيرة من الطاقة تستخدم لفترات طويلة، إلا أنه في حالة استخدامها بشكلٍ خاطِئ أو التحميل الزائد عليها قد تنفجر مُخَلِّفة وراءها انفجارًا نوويًا مُدوِّيًا للغاية، مما يعني أن هذا المكان بِرُمَّتِه سيتحول إلى كومة رماد.

اتسعت عينا زياد في فزعٍ وقال:

- وما العمل؟

قال رشاد بتوتر:

- يجب إيقاف المولد على الفور.

سأله بحيرة:

- والمختبرات؟ والعينات؟

قال رشاد:

- هناك مُوَلِّدٌ احتياطي يعمل بالجازولين مُلْحَق بمنشأة الأبحاث، سيعمل على الفور في حال توقف المُوَلِّدِ الرئيسي.

سأله زياد:

- هل تستطيع إيقاف المولد الرئيسي من هنا؟

هَزَّ رشادُ رأسه في أسفٍ وقال:

- لا للأسف، يجب إيقافه بشكل يدوي، باستخدام بطاقة مُمَغْنَطَة.

صمت الجميعُ وهم ينظرون لبعضهم البعض بوجوم، فقال زيادُ:

- وأين هي تلك البطاقة؟

قالت أمه:

- ماذا ستفعل؟

قال زياد بتصميم:

- يجب أن يُوقِف أحدٌ هذا المُوَلِّد.

قالت أمه بنبرة مُرْتَجِفَة:

- لا، لا تذهب!

قال زياد:

- وهل نبقى هنا منتظرين أن ينفجر المكان ويضيع كل مجهُودكم وتعبكم؟

حاولت أمه أن تمنعه ونظرت حولها بحثًا عمن يؤيدها، ولكن العلماء الآخرين أطرقوا في صمتٍ وخوف، وأمام إصرار زياد وصمت العلماء استسلمت سعيدة في النهاية، فناوله رشاد البطاقة المُمَغْنَطَة، ووصف له الطريق إلى المُوَلِّد كما شرح له خطوات إيقافه، ثم فتح البابَ الحديدي ليخرج منه زياد قبل أن يغلقه وراءه.

كانت أصوات المعركةِ بالخارج تصل إليه ولكنها كانت بعيدة عنه لحسن الحظ، فقطع الممرات في حذر حتى وصل إلى غرفة المولد، فأدخل البطاقة المُمَغْنَطة في مَوضِعِها وضغط على عِدَّة أزرار بترتيبٍ مُعين كما أخبره رشاد، ثم أمسك بمقبضٍ وجذبه بقوةٍ لأسفل، فانقطعت الطاقة عن كل شيء، وحلَّت الظُلمة على المكان إلا من ضوءٍ خافتٍ مصدره نار الحرائق المشتعلة في الأفق، وبعد بضعة دقائق بدأ المولدُ الاحتياطي في العملِ، فعادت الكهرباءُ إلى منشأةِ الأبحاث.

سار زيادُ عائدًا إلى المُختَبَر، ولكن كان هناك بعض المُقْتَحِمين يقطعون طريق عودته، يبدو أنهم استغلوا الظُلمة المفاجِئة للتَسَلُّلِ إلى المكان، أدركَ من حديثهم أنهم يبحثون عن أي مواردٍ أو مُؤَنٍ يمكنهم أخذها، فاختبأ في موضِعه وهو يكتمُ أنفاسه مُنتظرًا رحيلهم، وفجأة أحسَّ بذراعين قويتين تُقَيِّدانِ حركته، وصوتٌ أجَشٌ يقول:

- انظروا ماذا لدينا هنا!

ثم جذبه ليخرج وتبدو ملامحه على الضوءِ الباهت، فقال رجلٌ آخر:

- إنه شابٌ صغير لا يبدو أنه من الجيش!

وقال آخر:

- ما الذي تفعله هنا يا فتى؟

لم يجبه زياد فقال آخر ضاحِكًا:

- يبدو أنه من النوع العنيد!

فقال صاحب الصوت الأجَش:

- ربما يكون ابن شخصٍ مُهِم في الجيش، لِمَ لا نأخذه معنا؟ قد يصبح ورقةً رابحةً فيما بعد.

قال آخر موافِقًا:

- فكرةٌ جيدة.

وقبل أن يقول زياد شيء جذبوه معهم، فوجد نفسه يخرج إلى الساحةِ الواسعةِ التي تطل عليها المباني المختلفة، وقد انطفأت الكشَّافات العملاقة بعد ايقاف المولد الرئيسي، فلم يعد هناك سوى ضوء النيران المُتراقِص، وعلى إثره رأى زياد الجثث المُتناثِرة من الطرفين، كان الجيش قد تراجع إلى بعض الأبراج والنقاط المُحَصَّنة، وقد توقف إطلاقُ النار بسبب الظُلمة، وبعض المهاجمين بدأوا يتراجعون حامِلين غنائمهم المختلفة، ومعهم يحملون زياد إلى وِجْهَتِهِم المجهولة.

*****

وصلت إمداداتُ الجيش مُتَأخِّرة بعد انسحابِ المُهاجِمين، فجمعوا الجثث وحصروا الخسائر التي كانت فادحة تلك المرة، فأصبحت الأولوية لإصلاح السور الذي تأثر بالهجوم، وكذلك تعزيز الدفاعات والاستعداد لأي هجومٍ مُشَابِه، أما سمية فلم يكن يشغلها كل ذلك، بل كانت تبحث بفزعٍ عن ابنها زياد، لم يكن له أي أثر وسط تلك الفوضى، لقد أدى مُهمته بنجاح في إيقافِ المولد الرئيسي، فأين ذهب بعد ذلك؟ شاركتها فريدة خوفها وحيرتها، واستمر البحث عن زياد طِيلة اليوم، بدون العثور على أي طرفِ خيطٍ يقود إليه.

مَرَّ يومٌ كامل منذ اختفاء زياد، في تلك الفترة كان قد تم إصلاح السور ورفع مستوى الطوارئ، وتَحَفَّز الجنود لأي عودة لهؤلاء المُقتَحِمين. لم يبدُ أحدٌ مُكترثًا باختفاءِ زياد سوى فريدة وسمية والعلماء المقربين منهما، في اليوم التالي التقت سمية ورشاد بأحدِ قادةِ الجيش لإقناعه بأن يُرسل بِعثةً استطلاعية للبحثِ عن زياد في المناطقِ المُحيطة، فقال القائدُ وهو يقرأ بعضَ الأوراقِ الموضوعةِ على مكتبه دون أن ينظر إليهما:

- لا أستطيع فعل ذلك للأسف، فهناك خطر احتمال عودة المُقتَحِمين مُجَدَّدًا ونحن بحاجة لكل جندي في المكان.

قالت سمية بغضب:

- في تلك الحالة سأتوقف أنا والفريقُ البحثي عن العمل في المُختبرات حتى يعود ابني سالمًا.

نظر القائد لها بحدة ثم اعتدل من موضعه وضرب سطح المكتب بقبضتيه صائحًا:

- هل هذا تمرد يا دكتورة؟ أخشى أنَّ عواقب التمرد في الجيشِ وخيمة!

قالت سمية وهي تحدق في عيناه بإصرار:

- نحن لسنا جنودًا.

رَبَتَ رشادُ على كتفها مُحاوِلًا تهدئة الموقف وقال:

- أنا متأكد أن القائدَ يهتم بحياةِ كل فرد منا، ولكن علينا التفكير في الأمرِ بعقلانيةٍ دون تهور.

جلس القائدُ على مقعده مُجددًا وقال بنبرةٍ صارمة:

- سأعتبر أنني لم أسمع ما قلتيه يا دكتورة، فنحن نُقَدِّر جهودك، ولكن القرارات العسكرية لا تُؤْخَذ بمثل هذا التسرع، رغم ذلك أعدك أن أفكر في الأمر.

وهكذا استسلمت سمية في يأسٍ وغادرت المكتب وهي مُطْرِقة في حزنٍ ورشاد يساعدها على السير مُمْسِكًا بذراعها، وما إن غادروا المكتب حتى زفر القائد في ضيقٍ وقال:

- هذا ما كان ينقصنا!

ثم عاد إلى أوراقه مُجددًا يتابع التقاريرَ الواردة إليه.

*****

اقترب رجلٌ مُلَثَّمٌ من المنطقة الخاصة التابعة للجيش في مصر الجديدة، وعلى الفور توجَّهت الكشَّافات الكهربائية ناحيته، ولكنه رفع يديه وهو يقول:

- أنا أحملُ رسالة.

ثم وضع مظروفًا كارتونيًا سَمِيكًا على الأرضِ، قبل أن يتراجع للوراء بخطواتٍ حَذِرَة، ويختفي مُجدَّدًا في الظلام. اقترب بعضُ الجنودِ من المظروف الكرتوني وهم يتلفتون حولهم في حذرٍ، ولكنها لم تكن سوى رسالة بالفعل. حملوها على الفور إلى قائدهم، وما أن فَضَّها وقرأها حتى انعقد حاجباه في غضب، كانت رسالة من المُقْتَحِمين يُفَاوِضُون على استبدال زياد بكميةٍ من الطعامِ والشرابِ والوقود، وحددوا نقطة الاستبدال في موضعٍ مُحددٍ بعيدًا عن مقر الجيش.

ألقى القائدُ بالرسالةِ على مكتبه في غيظٍ، وبدأ يفركُ جبهته بأصابعه لطردِ هذا الإجهاد الذي يُلاحقه، فهو لم يحصل على قسطٍ كافٍ من النوم منذ هذا الهجوم، وهذا ما كان ينقصه، ابتزاز من مجموعة من المجرمين الخارجين عن القانون، هل الأفضل هو تجاهل تلك الرسالة؟ أم استغلالها بشكلٍ ما لصالحهم؟

قطع أفكاره اقتحام سمية لمكتبه كالعاصفة، يتبعها رشاد محاولًا منعها، والجندي المُوَكَّل بحراسة المكتب يتبعهما مُعترِضًا وهو يقول:

- ممنوع يا سادة!

ولكن القائد أشار له بيده أن يغادر المكتب ويغلق الباب وراءه، ثم قال لسمية بحدة:

- أنتِ تختبرين صبري يا دكتورة!

ولكنها قالت مُتجاهِلة كلامه:

- أين هي تلك الرسالة؟

كانت الأخبار الهامِسة قد تناقلت من شخصٍ لآخر حتى وصلت لأذنيها، فأسرعت ناحية مكتب القائد لتقتحمه دون التفكير في العواقب، ولكن القائد أشار على الرسالة الملقاة فوق المكتب، ثم تركها تقرأ الرسالة وهو يُخْرِج علبةَ دواءٍ مُسَكِّن من مكتبه، ويضع بعضَ الحبوب في يده، قبل أن يُلقيهم في فمه ويبتلعهم بكأسٍ من الماء، ثم سمع سمية تقول:

- أعطهم ما يريدون، المهم أن يعود ابني.

فقال لها القائد:

- اهدئي يا دكتورة، فالقرارات لا تُؤْخَذ بمثل هذا التسرع.

انسابت الدموعُ من عيني سمية وقالت:

- أرجوك، إنه ابني.

فقال رشاد مُدافِعًا:

- الدكتورة سمية مُحِقَّة، يجب أن نُحاول استعادة زياد.

عقد القائدُ حاجبيه مُفكرًا، ومَرَّ وقتٌ طويلٌ من الصمتِ وهو يُقَلِّبُ الأمرَ في ذهنه ثم قال:

- حسنًا، سنفعل.

*****

وقف زيادُ في البردِ والثلجِ والظلامِ، مُحاطًا بمجموعةٍ من الرجالِ المُسَلَّحين، في نقطةِ الالتقاءِ والموعد المحددين سَلَفًا في الرسالة، كانت الأفكار تزدحم في عقله، هل سيقبل الجيش بمثل تلك الصفقة؟ هل سيهتم حقًا بحياته؟ أمله الوحيد أن منصبَ أمه كقائدٍ للفريق البحثي سيكفي للضغط على الجيشِ بالقبولِ، ولكن من يدرِ ماذا سيحدث حقًا؟

خَيَّمَت حالةٌ من التوتر على الجميع، وتدفق الأدرينالين في العروق، وخفقت القلوبُ في ترقب، وقد توترت أصابعُ الرجالِ على أزندة أسلحتهم، وهم يَتَلفَّتون حولهم في حذر. وفجأة ظهرت من بعيد أضواءُ الكشَّافات، ومُدرعاتُ الجيش تقترب ببطء، حتى أصبح بينها وبين المتمردين مئة متر تقريبًا، فتوقفت المدرعات عن الحركة، وتسارع النبضُ في قلبِ زياد، وفي دائرة الضوء رأى مجموعة من رجال الجيش بملابسهم المميزة، وبينهم رأى أمه بصحبة الدكتور رشاد، تنظر ناحيته بلهفةٍ وخوفٍ، كانت هناك شاحنة صغيرة مُحَمَّلة بالمُؤَنِ، وتوجه أحدُ المُتَمرِدين إلى الناحية الأخرى ليفحص محتوياتها، ثم أشار لرفاقه أن كل شيء موجود، كانت الصفقة ستتم بأن يتحرك الرجلُ بالسيارةِ مُبتَعِدًا عن الجيشِ، بينما يتقدم زيادُ ببطءٍ إلى الناحيةِ الأخرى.

كان قائدُ الجيش يتابع عمليةَ التبادل باهتمام، وسمية تضع كفيها على صدرها وهي تدعو الله أن يتم كل شيء بخير، رغم أن قائد الجيش قد طلب منها البقاءَ في المقرِ حتى يعودوا إليها بابنها ولكنها صممت على الذهابِ معهم، كي تطمئن على ابنها بنفسها. وعندما أصبح زيادُ بمنتصفِ الطريق، والسيارة المُحَمَّلة بالمُؤَن تمر من جواره، رفع قائدُ الجيش يده لأعلى ثم خفضها، فأطلق قناصٌ يختبئ على بُعدٍ

رصاصةً اخترقت رأسَ الرجلِ الذي يقود السيارة، حينها صاح أحد المتمردين:

- خيانة!

بدأ تبادلُ إطلاقِ النارِ بين الطرفين، فركض زيادُ باتجاه الجيشِ، وركضت أمه نحوه، والرصاصُ يتطاير حولهما، كان قناصةَ الجيشِ يصطادون الرجالَ الذين يمسكون بالأسلحة، وكذلك فعل الجنودُ المصاحبين للقائدِ بأسلحتهم النارية، احتضنت سمية ابنها وهي تصرخ في خوفٍ وفزع، وكذلك احتضنها زياد وهما يحاولان حماية نفسيهما من الرصاصِ المُتطاير حولهما. تراجعت سمية ناحية الجيشِ وهي متشبثة بابنها، فَمَدَّ رشادُ يده إليهما من وراء أحد المدرعاتِ، فركضا نحوه واختبئا وراء المدرعة. أحسَّ زيادُ في تلك اللحظة بسائلٍ ساخنٍ يسيلُ على جنبه، فنظر إلى أمه في فزعٍ فرأى ثُقْبًا داميًا في صدرها، ودماء غزيرة تسيل منه، فصرخ في فزع:

- أمي!

ومدَّ يده في يأسٍ مُحاوِلًا إيقاف النزيف بأي وسيلة، وأدرك رشاد ما يحدث فقال:

- يجب أن نعود على الفور!

كان إطلاقُ النارِ قد توقف، والجثث متناثرة في كل مكان، أغلبها من طرفِ المتمردين، وعدد قليل من رجالِ الجيش، بدأ الجنودُ يتراجعون إلى المُدرعاتِ، وأحدهم يقودُ السيارةَ المُحَمَّلةَ بالمُؤَنِ عائِدًا بها، أما رشاد فقد مَزَّق معطفه إلى أشرطة وأخذ يربطها على جُرح سمية، ولكنها كانت تضع أناملها على وجه ابنها الباكي وهي تقول:

- الحمد .. لله .. أنك .. بخير.

فقال زيادُ من بين دموعه:

- لا تتحدثي، احتفظي بقوتك، سيكون كل شيء على ما يرام.

ابتسمت أمه، وبدأت نظراتها تزيغ، وسمعها تتلو الشهادة، قبل أن يتوقفُ قلبها عن الخفقانِ وتَخْمَد أنفاسها، وهي تُحَدِّقُ بعينين خاويتين نحو المجهول.

الفصل الرابع عشر

جلس زيادُ في غرفته بعد دفن جُثمانِ أمه، مُتكِئًا برأسه وظهره إلى الحائِط، والدموعُ الساخنةُ تَسِيلُ على خديه، كانت فريدة أخته قد سقطت فاقدة الوعي بعد سماعِ الخبر، وتتلقى العناية اللازمة في أحد أجنحة مُنْشَأةِ الأبحاثِ، فجلس وحيدًا في ظُلْمَة غُرفته، وعقله غارِقٌ في ظُلمته الخاصة، أحسَّ بأنه يعيش في كابوس مُتواصل بلا نهاية، تمنى أن يستيقظ منه ليجد كل شيء كما كان في الماضي، تُوقِظه أمه صباحًا ليذهب إلى الجامعة، أبيه وهو يتناول إفطاره أثناء قراءته للجريدة، أخته وضحكاتها العابِثَة وهي تلهو مع صاحباتها، أين ذَهَبَت تلك الحياة؟ كيف انقلب كلُ شيءٍ رأسًا على عَقِبْ في لمحِ البَصَر؟ أخذ يضرب مُؤَخِّرة رأسه في الحائط علَّه يستيقظ من هذا الكابوس، ولكنه كان يُوْقِن أن هذا هو الواقع ولا شيء سواه، الواقع الذري القَمِيء.

دَلَفَ رشادُ إلى الغرفة على صوت خبطات رأسه المتتالية، واحتضنه وهو يبعده عن الحائط كي لا يُؤْذِي نفسه، ولكنه لاحظ بقعةً داميةً على الحائِط، وسمع زيادُ يقول بألم:

- لماذا؟ لماذا؟

قال رشاد بأسفٍ:

- لقد قرر القائد أن يستغل الموقف لكي يُؤَدِّب المُقْتَحِمِين، وينتقم منهم، ويعطي دَرْسًا لمن يحاول ابتزازه مثلهم!

قال زيادُ بألمٍ:

- لماذا ماتت هي؟ لماذا لم أمت أنا؟

قال رشاد وهو يَرْبِتُ على ظهره:

- لا اعتراض على قضاء الله، لكل ما يحدث حكمة لا يعلمُها الا الله.

أخذ زياد يبكي وينتَحِب ورشاد يضمه ليهدأ، لم يعثر في قاموس اللغة على كلمات مواساةٍ كافية لشابٍ في ربيعِ العمرِ قُتِل أبويه أمام عينيه، ماذا يقول له؟ أن العالم على شَفِير الهاوية، وأن الحياة على الكوكب مُهَدَّدة بالفناءِ؟ أن الحضارة كما عرفوها قد انتهت للأبد؟ وماذا يُضِيْرُ الإنسان بأن تَفْنَى الحياة كلها إذا فقد أقرب الناس إليه؟

هدأ نَحِيْبُ زياد بمرورِ الوقتِ، فقال له رشاد:

- يجب أن تَظَل قويًا من أجل أختك، فلم يَعُد لها أحدٌ في الدنيا إلا أنت.

مسح زيادُ دموعه بطرفِ ردائه ثم قال:

- أريد أن أراها.

ساعده رشاد على الوقوفِ، وسار معه عبر الممراتِ المختلفة حتى وصلا إلى الجناح الطبي، وهناك رأى فريدة راقدة على أحد الأَسِرَّةِ البيضاء، والمحاليل مُعَلَّقة بذراعِها، وأجهزة مُتَصِلة بها تُرْسِل إشارات مختلفة، كان كل شيء قد عاد للحياة بعد إعادة تشغيل المُوَلِد الرئيسي، فسأل إحدى المُمَرّضات:

- كيف هي؟

فقالت له:

- إنها تُعَاني صدمةً عصبيةً حادة منذ تلقي الخبر، ولكن كل إشاراتها الحيوية طبيعية، ستكون بخير.

اطْمَأَن زيادُ على أخته، ولكنه كان يعرف أنه لم يَعُد مُرَحِبًا به داخل المُنْشَأَة بعد موتِ أمه؛ لولا الدكتور رشاد والعلماء الآخرون لتم طرده خارج المكان، لم يزعجه ذلك فلم يَعُد هناك أحد يبقى من أجْلِه على كل حالٍ، بل إنه كان قد اتخذ قراره؛ سيُغَادِر تلك الأسوار، بحثًا عن الحرية، والملاذ.

ما إن أفاقت أخته حتى أخبرها بعزمه على الرحيل، لم تكن فريدة بحالة تسمح لها بالموافقة أو الرفض، إلا أنها كانت مِثْلَه تشعر بالاختناق من المكانِ الذي يحمل رائحةَ الموتِ في كل أرجائه، وما إن تحسنت حالتها حتى أخذ زياد يُجَهِّز حقيبته، بعض الطعام والشراب الذي يكفي رحلتهما، قناعيّ الغاز وبعض المُرَشَّحات، تأكد من شحن هاتفه للمرة الأخيرة، أغلق حقيبته وعلَّقَها على كتفيه، وتوجه

ناحية غُرفة أخته كي يستعدا للرحيل.

حاول رشاد أن يُثْنِيَه عن عزمه وطلب منه البقاء معهم حيث الدفء والأمان، إلا أن زياد كان قد عقد عزمه بالفعل، وكذلك كانت فريدة في صفه، ولم يَعُد هناك مجال للتراجع، وهكذا حُسِمَ الأمر، وكنوعٍ من رد الجميل الأخير استغل رشاد والعلماء علاقاتهم الخاصة لتوفير سيارةٍ صغيرةٍ لزياد وفريدة كي يقطعا بها رحلتهما نحو الشمال، وشاهد رشاد السيارة تتجه ناحية البوابة الحديدية الضخمة، والجنود يسمحون لهما بالمرور، قبل أن تُغْلِق البوابة الحديدية ورائهما، ويبتلعهما الظلامُ.

*****

مَرَّ زيادُ في طريقه بمشاهد مألوفة، الأطلال، آثار الحرائق، علامات الفوضى، البَشر الخائِفين يهربون من أمام السيارة، والعدائيين الذين يُحَاوِلون ايقافها في محاولة يائِسة للحصول على أي شيء يُبْقِيهم على قيد الحياة، كانت المشاهد تمر من أمام عينيّ زياد كأنها تمر على شريط سينمائي، كأن كل هذا يحدث في عالم آخر لا علاقة له به.

لم يكن الطريق إلى الملاذ سهلًا، ولكن زياد بعد كل ما مر به من صعاب شعر أنه قد رأى كل شيء، ولم يعد شيء يُخِيفه، كل ما يخشاه هو أن يكون الملاذ مجرد أسطورة يرددها هؤلاء الذين يبحثون عن أي بارقة أمل تُبْقِيهم على قَيْدِ الحياة، وهو بالتأكيد واحدٌ منهم. مدَّت فريدة يدها وأمسكت بيده لتُطَمْئِنَه، فابتسم وهو ينظر إليها، إنها الشخص الذي يُبْقيه حيًا، يُبْقِيه عاقِلًا، وبشكلٍ ما شعر أن الملاذ حقيقة، هناك في مكانٍ ما من قلبه يأتيه هذا اليقين.

قطعت السيارة جزءًا كبيرًا من الدلتا، واقتربت من المكانِ الذي يجب أن يكون فيه هذا المُعَسْكَر، وصلت السيارة بالنهاية إلى مكانٍ مُحَصَّن بمتاريس خشبية بدائية، ولا يوجد طريق واحد مُمَهَّد تستطيع السيارة أن تسير فيه، رغم ضِيْق زياد من عدم استطاعته اكمال الطريق بالسيارة، إلا أن تلك الحواجِز وهذا العمل المُنَظَّم كان إشارةً هامة على قُرْبِه من مُعَسْكرِ الصيدِ، وهكذا تَرَجَّل وأخته من السيارةِ بعد ارتداءِ قناعي الغاز، وحَمَلَ حقيبته على ظهره، وأحكم إغلاقَ السيارةِ وراءه، قبل أن يُشْرِعَان في إكمالِ طريقهما سيرًا على الأقْدَام.

لاحَتْ لهما من بعيد أضواءٌ مُتَرَاقِصةٌ تَدُل على وجودِ نارٍ مُشْتَعِلَة بالمكانِ، فاسْرَعا السير ناحيتها حتى بدت لهما أسوارُ المُعَسْكَر الخشبية، فأمسك زيادُ بيد أخته وهو يُسْرِعُ الخُطَا ناحية الملاذ، وفجأة ظهر لهما رجلان من الظلام، لِيُمْسِكَا بِهِمَا بقسوةٍ

وأحدهما يقول:

- من أنتما؟ وماذا تُريدان؟

قال زياد:

- نحن لاجئان نبحثُ عن الملاذ.

نظر الرجلان إلى بعضهما البعض، ثم قال أحدهما:

- فلنأخذهما للمعسكر وهناك سيتقرر كل شيء.

وهكذا سار زياد وفريدة بصحبة الرجلين ناحية المعسكر، ورغم قسوتهما إلا أن زياد أحسَّ بالأمانِ، حتى عبرا بوابةَ المُعَسْكَرِ. كان المشهدُ داخل المُعَسكَرِ مُختلِفًا تمامًا عن كل شيءٍ رآه زياد، فهناك مجموعة من الناس يَتَحَلَّقُون حولَ النارِ، وخيامٌ منصوبةٌ هنا وهناك، ورائحةُ طعامٍ شَهِي تأتي من مكانٍ ما، والأغرب هي البسمة المُرْتَسِمَة على بعض الوجوه، وفجأة سمع زياد صوتًا يقول:

- زياد! أهذا أنت؟

التفت زياد ناحية الصوت ليجد جلال ينظر إليه غير مُصَدِّقٍ، فقال أحدُ الرجلين:

- أتعرفهما يا جلال؟

فضحك وهو يَرْبِتُ على كَتِفِ زياد:

- نعم، لقد تشاركنا الحياة لعدة أيام في محطة المترو أسفل الأرض.

حينها أرخى الرجلان قبضتيهما عن زياد وفريدة، وارتسم الارتياحُ على ملامحهما، فقال جلال مُوَجِّهًا حديثَه لزياد وفريدة:

- مرحبًا بكما في الملاذ.

التفت زيادُ إلى فريدة وقال وهو لا يصدق نفسه:

- لقد انتهت رحلتنا أخيرًا.

كانا يشعران بالتعب من السفر الطويل، وقد آن لهما أن يحطا رحالهما.

- تمت بحمد الله -

الكاتب في سطور

أحمد صلاح المهدي، كاتب مصري، تخرج من كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، وهو مؤلف وناقد ومترجم، متخصص في أدب الفانتازيا والخيال العلمي، وقصص الأطفال واليافعين، فكتب عدة مقالات أدبية ونقدية على المواقع العربية، ونشر عددًا من قصص الأطفال في مجلة فارس المصرية.

له روايتان منشورتان في مصر بعنوان "ريـــم" وهي من أدب الخيال الغريب و"ملاذ: مدينة البعث" من أدب ما بعد الكارثة الذي يعد فرعًا من الخيال العلمي، ونشر له قصة الأطفال "الأرنب الشجاع" عن دار أصالة بلبنان بالتعاون مع مؤسسة الفكر العربي.

نُشر له الترجمات العربية الأولى للأعمال التالية: رواية "الإله العظيم بان" للكاتب الويلزي آرثر ماكين، ورواية "الويندیجو" للكاتب البريطاني ألجرنون بلاكوود، قصة الخيميائي لهوارد فيليبس لافكرافت، وهي أول ما كتبه لافكرافت وأول ما نشره.

ساهم أيضًا ترجمة عددًا من الروايات المصورة فشارك مع مجموعة كلمات للنشر بالشارقة بترجمة ثلاثة أعمال كوميكس وهي "بطل الظل" و"اسم المستخدم إيفي" و"القلب والعقل"، بالإضافة لترجمة رواية "التنين الأخير" التي نشرت على موقعيّ عرب كوميكس وبوابة الكوميكس في مصر.

الموقع الرسمي للكاتب:

http://ahmedmahdi.net

الشتاء الأسود

وقف زياد وراء الزجاج يراقب النيران المشتعلة في الأفق، وضوؤها الباهت يصل إليه راسمًا جسده في صورة ظل أسود، يلقي بنظره على العالم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فقد بدا أنه لا نهاية لتلك الفوضى والجنون؛ أصبح مشهد الحرائق وصوت الرصاص والمدافع معتادًا بالنسبة له، وفي كل يوم تقترب النيران، وتصل الأصوات إلى مسمعيه أعلى من ذي قبل، كقدرٍ محتوم يقترب ببطءٍ وثبات.

بأنامل محترفة ينسج لنا أحمد صلاح المهدي أحداث روايته، وبنفس هذه الأصابع يسحبنا بسلاسة عبر أحداث الرواية، فينجح في رسم صورة حقيقية بدرجة مبهرة لأحداث الشتاء الأسود في مصر.

د. حسام الزمبيلي
رئيس الجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي.

يجيد الروائي "أحمد صلاح المهدي" حبكته الروائية المشوقة، ويحكم حول فؤاد القارئ حبال السرد المنسوجة من خيال خصب يصف لنا مغامرة ما بعد كارثة الحرب الكونية، التي غمرت العالم بالظلمة والقتامة والتلوث الإشعاعي والرعب.

الناقد الأدبي أ/ خالد جودة.

آمنة للنشر والتوزيع
من أجل مجتمع أرقى